ملامح العصر

ملامح العصر

مقالات

"محمد ناصر" صلاح

- ملامح العصر
- محمد ناصر صلاح
- الطبعة الأولى: عمان/ 2001
- رقم الإيداع: 764/ 4/ 2001
- رقم الإجازة: 769/ 4/ 2001
- رقم التصنيف: 306 صلا
- نشر بدعم من وزارة الثقافة/ عمان

- الآراء الـواردة في هـذا الكتـاب لا تعبّـر بالضّـرورة عـن رأي الجهة الداعمة للطبعة الورقية الأولى.

FEATURES OF AGE

ARTICLES

MOHAMMAD NASER SALAH

المقدمـــة

لا يمكن أن نقف حدود التغير على أطراف التسلسل الرقمي، العشرية، أو غير العشرية، بل إن التغير مسألة نوعية محضة، حتى لو كان للكم ما تقوله في النوع. لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن نرد التغير إلى الأصفار التي يختتم بها رقم ما خاناته الواقعة إلى اليمين.

إن ما كان يحتشد، في هوامش السنين السابقة، سوف يحتل مكانه كمتنٍ للصفحات المقبلة، وما كان ينظر إليه كظواهر غريبة، أو غير مألوفة، أو غير شائعة، سوف يفرض نفسه لا كظواهر معروفة ومألوفة وشائعةٍ فقط، بل كأنماطٍ سيادية أيضاً.

وسوف يكون القديم نقطة البدء. وكما قال أحد الفلاسفة، إن الجديد يأتي دائماً متستراً بالقديم. سوف تبحث هذه النماذج الجديدة، عن أنسب النماذج القديمة، ولو على نطاق الشكل فقط، لتدخل مرتديةً

زيهـا. وذلـك توخيـاً لتأصـيل نفسـها، كأنمـاط طبيعيـة وحقيقية، بـل ولتـزعم وتـرى الأصـالة لنفسـها، ولتبعـد أي اتهامٍ لها بكونها نتاج اختراعٍ أو ابتداعٍ ما.

وفـوق ذلـك لتمسـح الأصـالة، عـن النمـاذج المغايرة، وتتهمهـا بأنهـا هـي الـتي تشـكل انحرافـاً عـن ذلـك الأصـل، وتطالبهـا بالخضـوع لمـا قـد صـنفته باعتبـاره "الأصـل الحقيقـي"، وتطالـب بحقهـا في أن تـرث التركـة الحضـارية السـابقة والراهنـة والمقبلـة.. المطلـق يعـود مـن جديد ليحتل الصدارة.

ولـن يكـون هـذا الجديـد واحـداً. فمـا كـان، لم يكـن هامشـاً موحـداً، وإن كانـت هنـاك أكثـر مـن دعـوة لتوحيـده. بـل سـوف يكـون أنماطـاً متداخلـةً، ومتحالفـةً، ومتصـارعةً. وكـلٌ منهـا ينسـب لنفسـه الحقيقـة المطلقـة، وينسب لمن عداه الضلال المطلق.

ومن يبحث عن نهايةٍ سعيدة، لن يشهدها. سوف تكون، في هذا القرن الذي يعيش خفقاته الأولى، لحظات فرحٍ، لكنها سوف تكون لحظات، ذلك أنّ الصراع التناحري هو سمة القرن الجديد، أولاً وآخراً.

وإذا ما أردنا أن نفهم، علينا أن نقرأ بعيني الآتي، لا بعيني الراهن. فما يبدو غير هام اليوم، سوف يكون هاماً جداً غداً، وما يعجز عن اجتذاب العقول حالياً، سوف يُعجز هذه العقول لاحقاً.

ولا ينسب هذا الاستقراء لنفسه الحياد، بل إنه متحيزٌ كل التحيز، فالحق انحيازٌ والخير انحيازٌ، والفضيلة انحيازٌ.. وأول انحياز للإنسان هو العقل. ولا يعتبر هذا النموذج الفكري نفسه خارج القرن، وخارج الدراسة، بل يقدّم نفسه باعتباره إحدى الظواهر، والمدارس المتصارعة.. ومن موقعه هذا، يقدم رؤيته.

إن وقوع ثلاثة أصفار إلى يمين رقم السنة الألفية، لا يمكن أن يؤدي إلى قدوم سكان الكواكب الأخرى إلى كوكبنا، وإن قال أولئك الناس ذلك. إن مثل هذه الظاهرة، لا يمكن استيعابها، إلا من خلال تراكم التطورات العلمية والتقنية، لدينا ولديهم، في القرنين السابقين، وما أفضت إليه من ارهاصاتٍ، مثل إطلاق الأقمار الصناعية، ومشاهدة الأطباق الطائرة.

ولا شك بأن من أبرز عناصر الألفية الثالثة، في قرنها الأول، وقد لا تجود بأكثر منه، هو عودة المفاهيم الدينية، لتحلّ الصدارة. وأبرز ما يمكن ملاحظته هو ظهور أديانٍ جديدةٍ، أو تفاسير جديدة لأديان قديمة. المسألة ليست المساجلة لصالح فريقٍ ضد آخر، بل تبياناً لمنحىً "جوهريٍ"، هو صراع الحياة ضد الموت كخط أساسي ينظم المفاهيم، في هذا القرن الجديد الذي

يشكل حلقة بداية الألفية الثالثة، وقد يشكل حلقة ختامها أيضاً.

أما التساؤل عن: كيف سيكون الانتظام الحضاري لهذه الظواهر؟ ما هي الأطر النظامية لهذه التوجهات الحضارية؟ فهو أمر يخرج عن نطاق هذه الدراسة ولا شك بأنه يتطلب بحثاً من نوع آخر.

عالم الحلم

في نفس كل شابٍ أو فتاةٍ.. رجلٍ أو امرأةٍ.. حلمٌ.. وربّما أكثر.. أمنيةٌ.. أو مجموعةٌ من الأمنيات.. المال.. الشهرة.. التنقل بين عواصم العالم.. ارتداء أكثر الملابس أناقة.. سيارة.. شقة.. تكوين الذات.. بناء المستقبل. وهناك من يعيش أحلاماً أكثر بساطة.. الحياة المستقلة.. التخرج.. الزواج.. بل حتى العمل.. مجرّد العمل، أصبح في أحيانٍ كثيرةٍ، حلماً.. وهناك من يحلم لوطنه وأمته.. بل هناك من يحلم للعالم كله.. وهناك ما يمكن أن نسميه الحلم الجمعي.. أو حلم الأمة لنفسها..

الحلم هو المثال الذي نطمح إلى تشكيل واقعنا وفقه.. العلاقة ما بين الإنسان وواقعه علاقةٌ شائكةٌ.. قليلون جداً هم الذين يعيشون في توافقٍ كاملٍ مع واقعهم، بحيث لا نجد لديهم ما يشكون منه أو يطلبون تغييره.. قليلون جداً، هم الذين لا يحملون في

صـدورهم أمـلاً، يتمنـون تحققـه.. وربمـا يقـول بعضـنا أن مثل أولئك الناس غير موجودين، على الإطلاق..

هذا النزوع نحـو طمـوحٍ معـينٍ قـد يبـدو سـوء تكيـفٍ مـع الواقـع.. إلا أنـه في حقيقـة الأمـر يشـكل حالـةٌ إيجابيـةٌ جـداً.. والفـارق بـين حـالتي التكيـف السـلبية والإيجابيـة، هـو أن الأولى فيهمـا لا يشـكل الـتمني فيهـا سـوى شـكلاً، من أشـكال التـذمّر، والسـخط.. وربّمـا العـيش في أوهـام.. حالةٍ من الإنشطار، مـا بـين واقـعٍ معـاشٍ، ومـا بـين خيـالٍ لا يمـتّ إليـه بصـلة.. في حـين أن الحالـة الثانيـة، هـي حالـة الطمـوح إلى مثـالٍ مـا.. ومعنـى هـذا أن هنـاك واقعـاً غـير مرضٍ، وفي المقابل، هنـاك تحـركٌ باتجـاه تغـيير، مـا هـو غـير مرضٍ فيه.. إنـه إبـداع الفـرد لواقـعٍ، يتصـف بمـا يـراه مـن صفاتٍ مثاليةٍ..

إنّ الحلـم أمـرٌ ضـروريٌ جـداً في حياتنـا.. بطبيعـة الحال، فإن هنـاك مـن سـوف يجـادل بـأنّ الحلـم مـا هـو إلا

وهمٌ رومانسيٌ، يضفي على الواقع جماليةً وهميةً.. إلا أن هذا البعض الذي يرفض الحلم، تحت شعار الواقعيّة، لا تخرج حياته عن كونها انسياقاً وراء تيارات الواقع المتقلّبة.. هذه التيارات تشكّل حياته دون أن يلعب دوره المصيريّ في توجيه الحركة المحيطة به نحو ما يخدم مصالحه، ومفاهيمه، ورؤيته لذاته..

إنّ وجود المثال في حياتنا، يوظّف الأداء اليوميّ للفرد، أو الجماعة، في نهج يخدم هدفاً مستقبلياً.. ومن المؤكّد أن هذا المستقبل ليس وهماً.. إنه الواقع الذي سوف نعيشه، في الأيام أو السنوات المقبلة.. إنّ وجود هذه الهدفية يكسب الحياة معنى.. يخرجها من دائرة الضياع والعبث.. يجعلها اختياراً لا مجرد ضرورةٍ.. يطرح الكفاح بديلاً للاغتراب.. هذه هي الصيغة السويّة لمفهوم التكيّف مع الواقع.. وما الانسحاب من الواقع، أو الانسياق وراءه، سوى حالتين مرضيتين.

والمثال من الأهمية في حياتنا، بحيث يمكننا إلى حد بعيد جداً، أن نقول: "قل لي ماذا تحلم، أقول لك من أنت".. إنه خلاصةٌ لمكنونات صدورنا.. خلاصةٌ لتجاربنا وثقافتنا.. إنه بالضبط جملةٌ واحدةٌ، تلخّص معنى الحياة، بالنسبة لنا.. موقفنا من هذا الوجود.. الحكم الذي نصدره على الواقع.. إنه يعتبر أصدق تعبير، عن فلسفتنا في هذه الحياة.. حتى لو كنّا ندّعي ليس لنا فيها فلسفة.. إنّه هدف الزمان المقبل، كما نحدده له نحن..

لكن هل تأتينا الأيام والسنوات، بما انطوت عليه صدورنا، من أمانٍ؟.. كثيرةٌ هي الأحلام.. وقليلةٌ تلك التي تتحقق منها.. أحياناً يكون الفرد هو المسؤول، عن عدم تحقق حلمه.. مثلاً هناك من يحلم بالتفوق، ولا يبذل أدنى مجهود.. وكأنه ينتظر أن يأتيه التقدم، من تلقاء ذاته.. أو أن يكدح في سبيله، غيره من الناس،

ويقدموه له، على طبق من ذهب.. هناك من يبذر القليل، ويأمل أن يحصد الكثير.. هناك من يزرع الكراهية، ويأمل أن يجني المحبة.. هناك من لا يفكر بالعلاقة بين ما يفعل، وبين ما يأمل فيه.. من لا يأخذ بنظام الأشياء..

والكلّ يسأل: "أليس من حقي..؟" "لِمَ تحقق ذاك لغيري..؟" هذه الثنائية المرةّ، بين الحلم الجذّاب، وبين الواقع البليد، تفتك بالإنسان.. الكل يعيش بانتظار أن تأتيه الأيام، وربما السنوات بحلمه.. وبانتظار أن يأتي ذلك الحلم، يعيش الإنسان-وفي حقيقة الأمر، يجد نفسه مرغماً على أن يعيش-واقعاً لا يحبه.. حلمٌ يتمهل.. واقع يتكرّس.. والحلم يبدو سراباً.. ويلوح الضياع باعتباره البديل الحقيقي الوحيد..

ما يجب تعلّمه، هو ضرورة أن يكون الحلم واقعياً.. طالما أن ليس المطلوب أمنيةٌ، نمضي حياتنا في

تمنيها، دون أن نحقّق شيئاً.. يجب أن نفكر في العلاقة، بين ما نعيش، وما نتمنى.. هل نسير فعلاً، في الطريق التي تؤدي إلى الهدف.. أم أننا فقط نسرح في خيالنا.. الواقع يطالبنا بالعقلانية والموضوعية في رسم أحلامنا.. وإلا أصبحت حياتنا ازدواجيةً جنونيةً. حياةً نفتقر إلى المنهجية.. ومستقبلاً متخيلاً لا أساس له على أرض الواقع.. إن الماضي هو المسؤول عن حاضرنا.. والحاضر هو الذي ينتج مستقبلنا.. يجب أن نحول الحلم إلى هدفٍ أو أهدافٍ تشكّل نتائجاً.. ثم نبحث عن الأسباب المؤدية إلى تلك النتائج.. ثم نؤصّل هذه الأسباب في حياتنا اليومية الراهنة.. ولا يكفي أن يكون الحلم موجوداً على الأرض، لكي نعتبره واقعياً.. فالأفراد يتفاوتون في نصيبهم، من ما على الأرض من إمكانيات.. يجب أن لا نبني أحلامنا على وقائع يعيشها الآخرون، ولا نعيشها نحن.. أن لا نسرق أحلام الآخرين.. أن تحقيق الحلم، ما هو إلا نتيجةٌ ضروريةٌ

لاعتماد وسائل أو أسباب أدت إليه.. وقد لا تكون هذه الوسائل في متناول أيدينا.. هناك أشخاص كثيرون حققوا أحلاماً معينة.. لكننا قد لا نعرف ماذا فعلوا.. وغالباً ما لا يكون بمقدورنا تقليدهم.. لأننا نملك قدراتٍ، تختلف عن قدراتهم، ونعيش ظروفاً وملابسات، تختلف عن ما عاشوه.. يجب أن يكون حلمنا مرتبطاً بشخصياتنا وإمكانياتنا الخاصة.. وهذه الشخصيات، والإمكانيات، قابلةٌ للتطور، إذا ما أحسنا المحاولة.. بطبيعة الحال فإن الاستفادة من تجارب الآخرين.. نجاحاتهم وعثراتهم.. أمر لابد منه.. إلا أنه يختلف عن التقليد..

كثيراً ما يخطئ الفرد في اختيار مثاله.. كثيراً ما نجد أن حلمنا القديم لم يعد يلائمنا.. أحياناً تكون المسألة مسالة نضجٍ.. نتيجة لما نكتسبه عبر الزمن من خيراتٍ، ومعلوماتٍ، نتيجة ما عشناه من تجارب.. أحياناً أخرى،

قد نجد الأمنية التي كنا نتمناها، قد تحققت.. فنتحرك نحو هدفٍ أبعد.. وأحياناً تكون المسألة عبارة عن تراجعٍ.. حيث نعجز عن الوفاء بما يتطلبه مثالنا من مشاقٍ، والتزاماتٍ.. فيجري التنازل عنه، نحو مثال آخر أكثر تناسباً مع استعداداتنا..

إذا ما كان الهدف واقعياً.. يعبّر عن شخصياتنا، واستعداداتنا، فلا بد من المثابرة.. الصبر كلمة استعملت لتعني الخنوع، والذل، والرضى بكل شيءٍ.. واستعملت أيضاً لتعني الكسل، والتراخي، وعدم القيام بأية فعاليةٍ.. لكنها تعني في الحقيقة شيئاً آخر.. فمن يطلب تغيير الواقع لا بد له من التحرّك.. وغالباً لا تأتي النتائج فوراً وبسهولةٍ.. هناك من لا يقبل أن يعطي الزمن حقه.. من يريد مطلبه مباشرة وإلا.. وهل نهدد الزمن؟.. غالباً ما ينتهي هؤلاء المستعجلون إلى التنازل عن الحلم، والقبول بأي حلّ في متناول اليد.. ما دام

هذا الحل مباشراً وفورياً.. مثل هؤلاء لا يمكن اعتبارهم أصحاب مبدأ، وشخصيةٍ.. إنهم مستعدون للتخلي عن مطامحهم بسهولةٍ.. تحت شعار الروح العملية..

يجب أن نتحلى بالصبر.. وكثيراً ما نجد أنفسنا نعيش في فراغ.. خاصة إذا ما كانت المسافة بين الواقع والحلم طويلة.. يجب أن نقبل بحالة الفراغ.. طول المسافة يغري بحلٍ مؤقتٍ.. حتى لو كان جزئياً أو هامشياً.. ليخفف من وطأة الواقع، وقسوته، وبلادته.. وغالباً ما يكون الحل الجزئي بديلاً استراتيجياً.. غالباً ما نظنّه أو نخدع أنفسنا لتبريره، على اعتبار أنه ليس بديلاً للمثال.. على اعتبار أنه نقطة ارتكازٍ مرحليةٍ.. لكن قد يكون الأمر في حقيقته على العكس تماماً من ذلك.. المحطة، قد لا تكون نقطة توقف مؤقتةٍ.. والوقفة كثيراً ما تطول.. ما أكثر الحالات التي استحال فيها المؤقت إلى دائمٍ.. فالحل الجزئي قد يطرد الحل المثالي.. كثيراً ما

يظهر المثال فجأة، ليجد الحل المؤقت يعترض الطريق.. يقول الفرنسيون: "لا شيء يدوم سوى المؤقت".

من الخطأ أن نحمل القول بالفراغ، على محمل أن الفراغ هدفٌ في ذاته.. بل لابد أن نختار صيغة تكيفٍ ملائمةٍ.. ليس من الضروري، حتى نكون مخلصين، أن نحرص على وجود فراغٍ مطلقٍ.. بل أن نعالج هذا الفراغ بحكمةٍ.. وفي محاولة ملء الفراغ لا تعتبر كل خطوةٍ خطراً..

لا بدّ من المرونة.. إذا ما كانت هذه المرونة، لا تعني التنازل عن الحلم.. أو اتخاذ موقفٍ يؤدي إلى استبعاده.. بل بالعكس.. ربما تأتي خطوة "الاتجاه الآخر" بالحلم.. أو تفتح له طريقاً جديداً.. مثلاً قد يعمد شخص يعاني من البطالة، إلى تنمية هوايةٍ أثيرةٍ عنده.. وغالباً ما تأتي هذه الهواية بعلاقاتٍ جديدةٍ، قد تقود إلى فرصة العمل.. حالات عديدة نمت فيها الهواية، لتصبح

هـي فرصـة العمـل المطلـوب، والمحبّـب.. قـد يعـيش المـرء فراغاً معيناً في حياتـه.. وقـد يكـون هـذا الفـراغ ضـرورةً.. لكـن علـى هـذا المـرء أن ينفـتح علـى الحيـاة، والنـاس.. ومن المؤكـد أنـه سـوف يجـد مـن خلالهمـا الحـل الصـحيح لمشكلته..

مـن الضـروري أن نحـارب اليـأس.. لأنـه العـدو الأول، والخطـر الحقيقـي علـى مثلنـا وأمانينـا.. فمـن يصاب باليـأس نتيجـة مـرارة الواقـع، لا يكـون قـادراً علـى التغلـب علـى هـذه المـرارة.. الواقـع يشـهد تقلبـاتٍ مفاجئـةٌ.. ويجـب أن يكـون المـرء دائمـاً مسـتعداً لتحقـق الحلـم.. الكـثير مـن ضـرورات الحيـاة يـأتي علـى شـكل صدفٍ.. غالبـاً مـا يفاجئنـا حلمنـا علـى حـين غـرة.. غالبـاً مـا يصـادفنا علـى قارعـة الطريـق.. فلـنكن مسـتعدين متـأهبين لاغتنـام فرصـتنا.. إحـدى الفتيـات خرجـت للتسـوق، فعـادت مخطوبـة.. كـثيرة هـي الأحـلام الـتي

تضيع.. كثيرة هي الأحلام التي تأتي، لتجد أصحابها منغمسين في عبث الأيام، بشكل لا يعودون معه قادرين على الإمساك بها.. قليلون جداً، هم الذين يتحملون ركود الأيام، وتمهل الحلم.. ويبقون في الوقت نفسه، جاهزين للعمل.

أنت والنجوم

"ترى ماذا يخبئ لي المستقبل؟" ليس هناك من لا يسأل نفسه هذا السؤال.. ويصبح الأمر أكثر إلحاحاً عندما يقع المرء في مشكلة ما.. ويستحيل إلى حاجة ماسّة، إذا ما تطورت هذه المشكلة، لتأخذ شكل الأزمة، أو الكارثة، التي تهدد مجرى حياته.. في هذه الحالات يكون السؤال الطبيعي هو: "من يستطيع أن يرشدني إلى الكيفية، التي يتوجب علي أن أتصرف، أو أعالج، وضعي وفقها؟" لكننا نجد السؤال يأخذ طابعاً مغايراً: "هناك أقدارٌ تتحكم بحياتنا.. فكيف السبيل إليها.. من يستطيع أن يكشف لنا المستور؟" كثيراً، وخاصة في الحالات التي يواجه فيها الفرد خيارات مصيرية، يشعر المرء بعجزه عن تسيير حياته وفق ما يشتهي.. بل حتى بالعجز عن اتخاذ قرار بالمفاضلة بين خيارين...

وكما أن هناك من كرس حياته، لاستغلال ضعف الآخرين، فهناك دائماً من يترصد حالة الضعف هذه..

هنـاك مـن يـزعم أن لـه للأقـدار سـبيل.. أنـه يسـتطيع أن يكشـف لـك مصـيرك أو مصـير مـن تحـب، أو ربمـا مـن تكـره.. فقـط أعطـه كفـك، أو فنجـان قهوتـك.. وسـيجد خطوطاً تنبـئ بظـروف، وملابسـات حياتـك، والنهايـة الـتي ستؤول إليهـا.. سـوف يقـول لـك كـم سـنةً سـوف تعـيش، وكـم مـرّةً سـوف تتـزوج، وكـم طفـلاً سـوف تنجـب. سوف يجيـب علـى معظـم-إن لم يكـن كـل- أسـئلتك: هـل أنـت مقبـلٌ علـى سـفرٍ؟ هـل سـتنجح في الامتحـان الـذي ينتظـرك؟ هـل سـوف تتخـرج؟ تتـزوج؟ هـل سيشـفى مـن مـرض مـن أقاربـك؟ هـل الفتـاة الـتي تحبهـا تبادلـك شعورك؟ ماذا سوف تكون نتيجة العلاقة؟

وتستحيل حالـة الترصـد هـذه "علمـاً".. يصـبح الغيـب "علمـاً يـدرس في معاهـد خاصـة، وربمـا في كليـاتٍ أو مؤسسـاتٍ جامعيـة.. واحـد أشـكال هـذا "العلـم" رصـد حركـة النجـوم والكواكـب، وتقصـي أثرهـا علـى حيـاة

الفرد والعائلة.. فقط قدم تاريخ ميلادك، ومن المفضل أن تذكر أية ساعةٍ، حتى تكون الدراسة أكثر دقةً.. وينفتح كل باب كان موصداً.. شخصيتك، مصيرك، مستقبلك، أقاربك، مدراؤك، زملاؤك، أصدقاؤك، وضعك العاطفي، المالي، الأسري، بل وحتى السياسي..

لا تستغرب عزيزي القارئ، فهناك من "يكشف" مستقبل أي دولة، أو معاهدة، ونجاحاتها المحلية، أو الدولية، من خلال معرفة تاريخ تأسيس هذه الدولة، أو توقيع هذه المعاهدة فيطبّق على هذا الكيان الاجتماعي "نظريته العلمية"، التي كرّس حياته لتطبيقها على حياة الأفراد...

لقد أصبحت مطالعة الصحف الحدث الأول، في قائمة نشاطاتنا اليومية. ويا ليتنا نتلهف على أخبار مجتمعنا، وموقعه في هذا العالم؟! لو كان الأمر كذلك،

لكنا رواد التقدم وسادة التحضر.. بل صرنا نشتري الصحيفة بهدف قراءة زاويةٍ محددةٍ فيها.. ومن ثم قد نقرأ الصحيفة، أو نطرحها جانباً، بعد أن نكون قد "اكتشفنا" ماذا يخبئ لنا هذا اليوم، أو الأسبوع، أو الشهر، حسب موعد صدور الصحيفة، أو المجلة..

وإذا ما سألت المرء "كيف تسنى لكاتب، أو كاتبة، هذه الزاوية، أن يشق طريقه إلى ما تخبئه الأقدار للبشر؟". سوف تكون الإجابة إنها مجرد تسليةٍ.. مجرد فضولٍ.." ولكن عندما تنشأ أزمةٌ ما، أو يفكر باتخاذ قرارٍ هامٍ، تجده يسارع إلى شراء الصحيفة لقراءة "قدره"..

وإذا ما كانت الأزمة حادةّ، أو القرار هاماً، تجده يبحث عن مثل هذا "العالم" ليطرح عليه التفاصيل، ويسأله الحل. كثيرون هم الذين يسألون، وهم بصدد اتخاذ قرار بالزواج، فيما إذا كان تاريخ ولادة الشريك، ينبئ بزواج موفق، أم لا.. ولا نستغرب عزيزي القارئ،

إذا ما علمت أن قرارات كثيرةٌ، يتم اتخاذها على ضوء حركة النجوم، وعلاقتها ببرج الفرد، الذي يتحدد بناء على تاريخ ولادته.. أعمال، مشاريع، صفقات، زيجات، رحلات، علاقات، دراسات.. كثير منها يتقرر بناء على حركة النجوم.. لا شك أن هناك نجوماً وكواكباً.. ولا شك أنها تتحرك... لكن ما أثر هذه الأجسام المتحركة على حياتنا؟ لا شك أيضاً إن هناك أقداراً معينةً، لكن كيف تتكشف هذه الأقدار من خلال هذه الحركة الفيزيائية؟

من المؤكد أن ثمة علاقاتٍ بين مواقع الكواكب، وحركتها، وأن ثمة آثارٌ لحركة الواحد منها على الآخر. وهناك مثال على ذلك يحب المنجمون ذكره، ألا وهو دور جاذبية القمر، في أحداث حركتي المد والجزر، في مياه بحار ومحيطات كوكب الأرض. أن العلاقة، والتجاذب، بين الكواكب مسألة لا يمكن إنكارها.

وهناك علاقاتٌ يقينيةٌ أخرى، مثل وجود كواكب معينة، في مواقع خاصة، أثناء فتراتٍ محددةٍ من السنة. إذا ما تعمقنا في مثل هذه الحقائق، فإننا نكتشف زيف علمية التنجيم، لا صدقها، كما يريد هؤلاء المنجمون.

إن الحقائق العلمية التي يسوقونها، لتأكيد صدق أقوالهم، لا تنمي إلى "علم التنجيم" المزعوم، بل تنتمي إلى علم الفلك، وهو علم حقيقي أدى تطور دراساته، إلى رصد حركة الكثير من النجوم والكواكب، ومعرفة الكثير عن خصائصها وصفاتها، بحيث أصبح من الممكن الوصول إليها..

ترى ماذا وجد البشر الذين توسعوا في علوم الفلك؟ فليسامحني الشعراء عندما أقول: تبين أن كوكباً مثل القمر أرضٌ سار عليها الإنسان عام 1969، أرضٌ لها ارتفاعات، وانخفاضات، وتربة..

داسها الإنسان، وصورها، ووضع أجهزته فوقها لدراستها.. لم نعد نرجع إلى الإلهة ديانا كما فعل الرومان، أو أرتيمس كما فعل اليونانيون.. كذلك الشمس، تبين أنها كتلة نارية، وليست تابعة للإله الذي عبده الفراعنة قديماً...

هذه المفارقة تكشف الأرضية التي نشأ فوقها التنجيم، إلا وهي الدراسة العلمية-التجريبية للكواكب وحركتها، وإضفاء صفة الربوبية على هذه الكواكب، وتوقع أحداث أو كوارث تقع للبشر، نتيجة لحركتها بدءاً من الزلازل والفيضانات، وانتهاءً بالحروب... وأصبح تفادي مثل هذه الكوارث لا يتم إلا بمناشدة هذه، القوى والتماس رحمتها.. هذا هو المنشأ الوثني للتنجيم، باعتباره إضفاءً لصفات الربوبية على الكواكب، التي كشفتها الملاحظة الفلكية، واختراعاً لأساطير تسرد علاقات قصصية بين هذه القوى، كما

لو كانت كائناتٍ حيةً، تحمل صفات وخصائص نفسية، واجتماعية، وعاطفية.. وتنسخ هذه الصفات، والخصائص، على الحياة الأرضية.

فكيف يفسر المنجمون اليوم ملابسات حياتنا؟ إحدى الطرق الرئيسية، هي تقسيم السنة إلى اثني عشر برجاً، رغم أن هناك من يجادل في عددها، أو كيفية استخلاصها.. فالبرج ما هو إلا عبارة عن مجموعة محددة من الكواكب، ودائماً يأتينا اكتشاف كوكبٍ، أو نجمٍ أو مجموعةٍ جديدة، فتتعالى الأصوات مطالبة باستحداث برج جديد. فبداية تقسيم الأسبوع كانت إلى خمسة أيام، تبعاً للكواكب الخمسة التي كانت معروفةً في ذلك الوقت، ثم اكتشف كوكبان آخران، فأصبح سبعة أيام، والآن اكتشفت ثلاثة جديدة.. كذلك تم اكتشاف مجموعة من النجوم، بين برج الميزان وبرج العقرب، فاخترعت منجمة بريطانية "برج الأفعى"، جاعلة منه

البرج الثالث عشر، وحتى تتمكن من إيجاد مكان له، اختزلت أيام كل برج، بحيث أصبحت ألسنة تشمل ثلاثة عشر برجاً.

لكن، ما علاقة هذا كله بحياة الفرد؟ يربط المنجمون صفات الإنسان بتاريخ ولادته، فيعتبرونه ينتمي إلى البرج الذي كانت فيه أشعة الشمس يوم ولادته، وبدل أن ينسبوا ما سوف يكتسبه الفرد من صفات، في حياته المقلة إلى الوثن الراعي لذلك البرج، تراهم يتخذون هيئةً علميةً فيقولون، أنه في ذلك التاريخ كان للكوكب انتظامٌ خاصٌ، وتشكيل محددٌ للذبذبات الكهرومغناطيسية التي تصدرها، والتي يصلنا ما يصلنا منها، فتلعب الدور الرئيسي في تشكيل صفات من يولد في ذلك اليوم.

فيقسمون الأبراج إلى أربعة مجموعات، يسمونها: النارية، والترابية، والهوائية، والمائية. ويصفون الأولى

منهـا بالحمـاس، والثانيـة بالواقعيـة، والثالثـة بـالتفكير، والرابعة بالعاطفية.

كـان القـدماء مـن الـوثنيين يـرون في حركـة الطبيعـة إنـذاراً بحـدث جلـلٍ، فكـانوا يخشـون الكسـوف والخسـوف وظهـور المـذنبات. أمـا اليـوم فقـد تـبين أن مـا كـانوا يعتقدونـه ربـاً مـا هـو إلا كتلـة ماديـةٌ تسـبح في الفضـاء..وإذا مـا كـان لهـذه الحركـة آثـار ماديـةٌ في الوسـط الفضـائي المحـيط بهـا، فكيـف نسـح لأنفسـنا بـالقول "أن لهـا آثـاراً اجتماعيـة"؟ "إنهـا تصـنع أقـدارنا"؟ وبـدل أن ينشـد الفـرد مسـتقبله عـبر كفاحـه الشخصـي-الاجتمـاعي، نجـده يلتمسـه في حركـة كوكـب مـن الكواكـب. بالضـبط يعتمـد إنسـان القـرن الواحـد والعشـرين، سـلوكياً، نفـس الأسـس الـتي كـان يعتمـدها وثنيـو قـرون الجهـل والظـلام. وعنـدما تحاصـره بالنقـاش العلمـي، يتـذرع بأنهـا مـا هـي إلا مجـرد

تسلية.. في حين أنه يضمر في داخل نفسه سؤالاً: "لم لا أجرب؟"

وغالباً ما تقوده التجربة إلى التصديق.. التصديق بالزيف.. فالمنجم ما اعتمد إلا صفاتٍ، ومفاهيم عامةً، تنطبق على معظم البشر-إن لم يكن كلهم. ولا بد وأن يأتي التعميم بالصيد السهل: هذا الأسبوع تصادفك مفاجأة غير متوقعة".. وأي منا لا تصادفه المفاجآت؟ أي منا لا تأتيه الأيام بغير ما يحتسب؟ نجاحٌ على صعيد العمل.. معظمنا سوف ينتظر هذا النجاح بتلهّفٍ، ولكن ماذا يحصل لمن يفقد عمله في هذه الفترة؟ سوف يرد عليه المنجم قائلاً: "نجاح في مجال آخر سوف يأتيك". وإذا ما اتجهت حركة كوكب الزهرة نحو موقع برج كالعذراء مثلاً، يتهلّل المنجمون، ويحملون البشار لمواليد هذا البرج، بأنهم سوف تتاح لهم فرصة النجاح العاطفي؟ كيف ولماذا؟ لأن كوكب الزهرة في نظرهم

هـو المسـؤول عـن حياتنـا العاطفيـة. يعتـبرون أنـه بدخولـه على برجٍ ما، يـدخل العاطفـة إلى حيـاة مواليـد هـذا الـبرج. لقـد جـرى إكسـاب الكواكـب الخصـائص البشـرية، حيـث تم افـتراض أن كـل كوكـب مسـؤول عـن أحـد جوانـب القـدر في حيـاة النـاس: المـال، العلـم، العاطفـة، السـفر،... وبدخوله على البرج، يفرض قدره على مواليده.

ترى، هل بعـد كـل هـذه الثـورات العلميـة، والتقنيـة، والفكريـــة، والاجتماعيـــة، نـــدخل القـــرن الحـــادي والعشرين، بمعتقداتٍ وثنيةٍ، نبني وفقها حياتنا؟

الجاسوسة الشقراء

في زمن ليس بعيداً، وفي دولةٍ ليست بعيدةٌ، شهد التاريخ مثالاً غريباً: اعتبر شرب القهوة ظاهرة غير عاديةٍ.. وبذلك شكّل ممارسةً مريبة لدرجة أنّ تعاطيها، كان يتم في جلساتٍ سريةٍ، تعقد في البيوت-ويا ويل من ينكشف أمره.. واليوم يحمل أحد أصناف القهوة اسم ذلك البلد..

ابن رشد، قوبل بإحراق كتبه.. واليوم تحمل مدارسنا وكلياتنا، شوارعنا وميادينا، اسمه اعتزازاً وافتخاراً في زمنه، اعتبره أبناء عصره عميلاً للهرطقة اليونانية، واليوم نكابر على جهل الغرب بحضارتنا قائلين: إنكم لم تقرأوا ابن رشد.. ولدينا كثيرٌ مثله!!!

هناك من اعتبر التاريخ الحضاري والحياتي للبشرية من نتاج الفكر، وجادل آخرون بأنه من نتاج المادة، وآخرون قالوا بالغرائز.. ويحتدم الصراع الآن حول علاقاتٍ مجرّدةٍ يدعونها (بنى).. أما نحن، فلا زلنا

نكشف ونعلن كل يومٍ، أن التاريخ ما هو إلا عبارة عن مؤامراتٍ سريةٍ يحيكها الجواسيس..

كل جديد نرى فيه خطراً يهدّد حضارتنا، وثقافتنا، وقيمنا، وانتماءنا.. ونأخذ في البحث عن جاسوسٍ، ننسب إليه جريمة اختراق "السور الحديدي" الذي قبعنا وراءه، نسترق النظر إلى ما قد يبدو للعيان، في الجانب الآخر.. ونسترق السمع إلى ما قد يصلنا من أصوات.. ويشتد قلقنا ويتحول إلى صراخٍ، هدفه حماية هذا السور..

سورٌ كسور الصين.. حديديٌ حديدية ستالين.. ويل لمن يحاول عبوره.. سواء من جانبنا إليهم.. أولئك الأعداء.. أو من جانبهم إلينا.. نحن أصحاب الأصالة.. إذا كان العابر أسمر فهو عميل.. أما إذا كان أشقر فهو الدخيل.. والويل كل الويل، إذا كان ذلك الشخص

امـرأةٌ، فهـي حصـان طـرواده، الـذي ندخلـه بأيـدينا إلى داخل قلعتنا الحصينة.

ولا يقـل الأمـر خطـورةً، إذا مـا ادخـل عـابر مـا كتابـاً، فـالمرأة قـد يقـف شـرها عنـد حـدود الـزوج، أمـا الكتـاب فقـد ينقـل مـا يجـري هنـاك، إلى داخـل القلعـة الحصـينة.. وننسـى أن لـدينا كتـب ابـن رشـد، والفـارابي، والكندي.. أولئـك الـذين نعتـز بهـم، ولا يقـرأ كتـبهم منـا، إلا مـن أغـواه شـيطان الإغريـق، لأننـا مـا زلنـا في قـرارة أنفسـنا، نعتـبرهم دخـلاء، علـى أصـالتنا.. بـل ربمـا ظـن الـبعض إن طائفـةً، أو دولـةً مـا، تجنّـد شـبابنا مـن خـلال كتبهم، لمؤامرة سريةٍ أعدّها أرسطو، ولم ينفذها بعد.

لن أدافع عن كل مـن يقـف هنـاك.. ولـن أدافـع عـن كل مـا يجـري هنـاك.. في الطـرف الآخـر.. خـارج السـور.. فهويّتهم معروفةٌ، ومـا ارتكبـوه، ومـا يرتكبونـه مـن جـرائم بحـق أنفسـهم، وبحـق غيرهـم، في غنـىً عـن الكشـف

والتعريف.. لكن هل كل ما يدور هناك هو الجريمة؟! وهل الحضارة البشرية، ما كانت إلا سلسلة مؤامرات؟ وهل الجديد لا يأتي إلا من قبل الجواسيس المجندين للسهر على تلك المؤامرات وتنفيذها؟!

لا أخشى القول بأنني زرت المركز الثقافي الإسباني، والفرنسي، والألماني، رغم عدم معرفتي بلغاتهم، واشتركت في مكتبات المركز الثقافي السوفيتي، والبريطاني، والأمريكي، واستمر هذا الحال سنوات فماذا وجدت يا ترى؟!

وجدت حقائق مذهلةٌ، لا يمكن بأية حال اعتبارها استثنائية: كان أحد الكتب التي استعرتها من المركز الثقافي الأمريكي، من تأليف أستاذٍ في إحدى الجامعات الأمريكية، يقدم فيها تصوراً استراتيجياً نظرياً، من خلال استعراضه للوقائع التاريخية، يبين فيه

أن السياسة التي انتهجتها أمريكا تجاه الشرق الأوسط، تتعارض مع مصالحها التاريخية الحقيقية.

وكان أحد الأفلام التي عرضها المجلس الثقافي البريطاني، عبارةً عن تصوير لحياة غاندي، وكفاحه ضد استعمار الإنجليز للهند ولا يتوانى الفيلم عن تبيان ما ارتكبته إنجلترا، في محاولاتها قمع هذه الرسالة الإنسانية، والحضارية.. بل ويصوّر أيضاً لقاءات غاندي مع الساسة الإنجليز، الذين كانوا يحاولون أن يثنوه عن عزمه، وإقناعه بالتراجع عن مطالبه، والتخلي عن دوره الكفاحي.. ويصوّر في المقابل ثباته على أداء رسالته التاريخية، حتى حققت أهدافها.

وكان من بين الكتب التي استعرتها من المركز السوفيتي، بعضٌ من كتب "دستويفسكي" الكاتب المسيحي الذي عاش في عصر القيصرية، والذي لم تمتد إليه أصابع الشيوعية.. كانت مكتبة المركز تحوي ترجمةٌ

عربيـةٌ قـام بهـا المترجـم العربـي القـدير "سـامي الـدوربي"، لمعظم ما كتبـه هـذا المؤلـف، والـذي لا زال موضـع اعتـزاز كل روسيٍ، حتى لو كان لا ينتمي إلى عقيدة الكاتب.

وقابلـت في المركـز الثقـافي الفرنسـي فنانـةٌ تشـكيليةٌ فرنسـيةٌ، كانـت تعـرض لوحـات رسمتهـا لمدينـة الـبتراء الأردنيـة، تلـك المدينـة التاريخيـة الـتي نعتـز بهـا.. لوحـات تتجول بها عـبر عواصـم العـالم، ناقلـةٌ مـن خلالهـا صـورةٌ، عن إحـدى منجزاتنـا الحضـارية، الـتي اسـتأثرت باهتمامهـا، ورأت أنهـا تسـتحق عنـاء السـفر، للمشـاهدة، والرسـم، والعرض، والتجول بصورها.

ولـن اعمـد إلى القـول بأنـه لـيس ثمـة عمليـات تجسـسٍ، واخـتراق، لكـن هـل كـان هيغـل، صـاحب الفلسـفة الـتي كافحـت في سـبيل تبيـان أن مجـرى التـاريخ ، مـا هـو إلا تحقـق للفكـر المطلـق، أو بعبـارةٍ أخـرى (الألوهية)، هـذا الفيلسـوف الـذي حـارب التسـلط، وألهـم

الحضارة البشرية، من خلال كتاباته عن "التناقض". هل كان هذا الرجل جاسوساً الا تستحق الفلسفة والأدب، والفقر والثقافة التي أبدعها الألمان، عناء دراسة اللغة الألمانية؟! أيمكن اعتبار تقدير هذه اللغة، وهذا الفكر، انحرافاً باتجاه النازية؟!

التاريخ يشهد أن القوة الكبرى التي هزمت ألمانيا النازية، هي روسيا التي كان نظام الحكم فيها يقول على التطبيق المحلي، لبعض نتاجات الفلسفة الألمانية.. فكانت هذه الفلسفة أخطر سلاحٍ، سدد في وجه النازية الألمانية الضربة القاتلة.. وكلام مماثل ممكن قوله عن "فولتير" و "ديدرو" و "مونتسيكيو".

لن اعمد إلى القول بأن أعداء الأمة لا يستغلون نقاط ضعفها، وعلى رأسها المرأة، لكن هل كانت الشابة الفرنسية، التي فطنت إلى موهبة طه حسين،

وأخـذها سـحر الشـرق، فشـاركته حياتـه، ووقفـت وراء عظمته، هل كانت جاسوسةً تهدف إلى اختراق وطنه؟!

مـؤخراً تعرفـت إلى أحـد أسـاتذة الأدب العربـي في الجامعـات الصـربية، وفوجئـت بأنـه عضـو في جمعيـة الصداقة العربيـة. والـتي لهـا فـرعٌ هنـاك، ولـيس لهـا فروعـاً هنا. تـرى هـل هنـاك مـؤامرة تحـاك ضـد امـرئ القـيس، أو جبران خليل جبران.

إن الخوف هو رد فعـل مـن يشـعر بضـعفه، فـإلى متـى نظل ضعافاً؟!إلى متـى نظـل نرفـع تكـاليف الـزواج، ونغلـق الأبـواب في وجـه الشـباب، ونحـدّر في الوقـت نفسـه، مـن الزوجـة الأجنبيـة؟! إلى متـى يظـل ركـن ابـن رشـد، والفـارابي، والكنـدي، وابـن سـينا، ركنـاً مهمـلاً في مكتباتنـا، ونحـدّر في الوقـت نفسـه مـن الدراسـة في الخـارج؟! إلى متـى نظـل أسـيري وسـاوس التجسـس، والمؤامرة، والخوف من الغريب؟!

العولمة سمةٌ أساسيةٌ من سمات العصر الحديث، ولم يعد من الممكن لأية أمة أن تتقوقع على نفسها، وترفض المشاركة في التحرك على الساحة الدولية. حيث نجد كل أمة تحاول التعرّف على الأمم الأخرى، وتعرّف نفسها إليها، ونجد كل أمةٍ تعتز بما لديها من قيمٍ، وكتبٍ، ولغةٍ، ورجالٍ، ونساءٍ، ساهموا في صنع الحضارة البشرية،وتقدّم نفسها للعالم من خلالهم.. لِمَ نحتجّ على هذا النشاط، بدل أن ننخرط به، فنحذو حذوهم ولا نزرع قيمنا، وكتبنا، ولغتنا، ورجالنا، ونساءنا، في عواصمهم؟

لِمَ لا نصدّر أفكارنا، بدل الاعتراض على تصدير الأمم الأخرى لأفكارها؟ ومتى كان الفكر والحضارة، أمراً يخص أمةٌ دون أخرى؟

في كل المراكز الثقافية التي زرتها. كنت أجد ورشاتٍ، يدرّس كل فيها لغته.. ويعد أصحاب التفوق يمنح دراسية.. فهل يوجب علينا انتماؤنا للغتنا،

وثقافتنا، أن نرفض أن نتعلم؟! بالعكس إنها أجيال المستقبل من مترجمين، ومتعلمين، ومعلمين، ومثقفين. علينا أن نميّز بين الصراع السياسي، والتفاعل الحضاري.. إنّ العهد المشرّف الذي نعتز به، هو العهد الذي كانت فيه أعمال المترجمين توزن بالذهب، دون أن تضع سياسة الفتوحات جهودهم موضع شكٍ أو ريبةٍ.

"الكمبيوتر" لم يخترعه جاسوس، وإن كان من الصحيح القول إن من بين من يستخدمونه جواسيس، فهل كل من يستخدمه جاسوساً؟! وهل من الصحيح القول: إنّه ما جرى اختراعه إلا لخدمة غايات التجسس؟ وحتى لو كان الأمر كذلك، فهذا لا يمنع أن نتعلمه نحن، وأن تستخدمه لخدمة أغراضنا، مصحّحين بذلك مساره!! والكلام نفسه يمكن أن يقال عن "الإنترنت".

وإذا كان الإنجليز قد نشروا لغتهم، بشكل أصبحت معه عالميةً، فليس الحفاظ على لغتنا، سوى

أوهى ذريعةً، للانسحاب من المحافل الدولية، والعلاقات العالية.

أيضاً فالتعارف، والصداقة والزواج، عن طريق المراسلة، ليس من اختراع أحد أجهزة التجسس الدولية، بل هو سلوكٌ يوميٌ يعيشه الناس هناك داخل مجتمعاتهم، ويتعاملون من خلاله.. وانتشر هذا السلوك، وأصبح معروفاً عالمياً، وامتد إلى تقنيات النشر المتطورة. ولنفرض أن ما يزعمونه من أن الزواج عن طريق "الكمبيوتر"، ما هو إلا صيغةٌ عصريةٌ لنظام الخاطبة التقليدي، فما العيب في ذلك؟! وما العيب في دور الخاطبة؟! إنها مسألة تقديم الراغبين بالزواج لبعضهم البعض، فهل أصبحنا نعيب هذا السلوك؟؟ أكنا مخطئين عندما سبق واعتمدناه؟! لو لا حاجة المجتمع إلى هذا الدور، لما كان قد خرج إلى حيّز الوجود. لم نعد نقبل بالأنظمة الاجتماعية التي سبق واعتمدناها، لأنها تقليدية، وفي الوقت نفسه نرفض أنظمة العصر لأنها مستوردة، فماذا نعتمد إذا؟! هل كل قديم

مرفـوضٌ لأنـه تقليـديٌ؟! وهـل كـل جديـدٍ مرفـوضٌ لأنـه مستوردٌ؟!

لا أحــب أن أرى التــوازن الســكاني المحلــي، بــين الشــباب والفتيــات، يــزداد اخــتلالاً.. ولا أحــب أن أرى معــدل الزيجــات المحليــة يتنــاقص.. وأنــا متــيقّنٌ مــن أن فرصــتي في النجــاح مــع امــرأةٍ شــرقيةٍ، أكــبر بكــثيرٍ مــن فرصــتي مــع غريبــةٍ، نظــراً للخلفيــة الحضــارية الاجتماعيــة والثقافيــة الــتي تجمــع بــيني وبينهــا، لكــن إذا بقيــت أبــواب هــذا الــزواج موصــدةً أمــامي، فســوف اضــطر إلى إدخــال حصان طروادة، بالزواج من "جاسوسةٍ" شقراء!!

ملكوت العقل

ماذا يريد الرجل من المرأة؟ وماذا تريد هي منه؟ وكيف يحاول كلٌ منهما الوصول إلى غرضه لدى الطرف الآخر؟ هذه أسئلةٌ يظن الكثيرون أن لا داعي لها، فبالنسبة لهم الإجابة واضحةٌ وسهلةٌ، بل وحتى بديهيةٌ.. لكن واقع الأمر هو على العكس تماماً، فما يظنه الكثيرون مسألةً بسيطةً، نجده –في جوهره– مسألةً في غاية التعقيد، وما قد يظنوه واضحاً، نجده في غاية الغموض هذا إذا ما ارتأينا تحليل الظواهر والأعراض، ومحاولة ردّها إلى أساسها، وتحليلها إلى العناصر المكونة.

إن أول إجابة تتبادر إلى الذهن هي الغريزة، ونجد مالا يحصى من النماذج والأمثلة، من حياة الكائنات الحية، البشرية، أو غير البشرية: الطير يتزاوج، بل وحتى النبات ينقسم إلى ذكر وأنثى، يتحرك بينهما الهواء.. لكن المسألة لا تكمن هنا، في الغريزة، بل في الكيفية التي يتعامل وفقها العقل، مع هذه الغريزة؟ الغريزة

تشكل طاقة الدفع، وهذا واضحٌ، لكن ما هو غير واضحٍ أبداً، هي الكيفية التي يستجيب بها العقل لدافع الغريزة، وكيف يتحرّك بناءً على تأثيرها في تفاعلٍ اجتماعيٍ، يمكن إذا ما تفحصناه، أن نجد اختلافاً بين فردٍ وآخر، بحيث يمكننا أن نقول أن الغريزة، أوعزت بتحرّكٍ ما، لكن الفرد هو الذي يقرر طبيعة وكيفية، وزمان، ومكان، وكافة تفاصيل هذا التحرّك.. بحيث لا يمكن مع ذلك وصف السلوك بأنه أمرٌ غريزيٌ، بل بأنه نتاج وعيٍ فرديٍ اجتماعيٍ، يمكن اعتباره مسألة ذكاءٍ وثقافةٍ وروحٍ جماعيةٍ، حتى لو كان منطلقاً من الغريزة.

ولو أمعنا النظر في سلوك الأفراد، فإننا نكتشف تشابهاً، ينتهي بنا إلى التوصّل، إلى نموذجٍ سلوكيٍ عامٍ يحكم العلاقة بين الجنسين. فهل هذا النمط نتاج للغريزة غير الواعية، أم هو نتاج اجتماعيٌ مكتسبٌ ومتوارثٌ اجتماعياً. إن الغريزة هي التي تدفع باتجاه التحرّك، لكن

طـابع هـذا التحـرك هـو مسـألةٌ اجتماعيـةٌ مـن الدرجـة الأولى.

وإذا ما بحثنـا في طـابع هـذا النمـوذج السـلوكي الـذي يحكـم العلاقـة، فإننـا نجـد نموذجـاً أو نمطـاً سـلوكياً يعتمـده الرجـل، وآخـر تعتمـده المـرأة. والفـارق لا يمكـن رده إلى مجـرد التكـوين الفطـري المختلـف بينهمـا. إن هـذا التكـوين يضع الرجـل في مقدمـة العلاقـة، لكـن يخطـئ مـن يظـن أن موقـع المـرأة فيـه هـو العربـة الخلفيـة، وأن العلاقـة بينهمـا علاقـة متبـوعٍ بتـابعٍ. إن المبالغـة والتطـرف في تقيـيم القـوة الاجتماعيـة للرجـلُ أدّت إلى وجهـتي نظـر متضـادتين: الأولى تـرى في الرجـل سـيداً لا يُحاسـب، وفي المـرأة عبـداً لا حـق لـه. ومقابـل هـذا التطـرف، وكـرد فعـل لـه، نشـأ تطـرفٌ آخـر، يـرى في المـرأة رجـلاً مـن طـرازٍ مختلـف، لـه كـل مـا للرجـل مـن حقـوق، وعليـه كـل مـا عليـه مـن واجبات.

إلا أن هـذين التـوجيهين –رغـم تضـادهما– لم يغيّـرا مـن طبيعـة النمـوذج السـلوكي الـذي يحكـم العلاقـة، فقـد بقـي الرجـل متفوقـاً وطليقـاً، وبقيـت المـرأة تشـعر أنهـا مغلوبـةٌ علـى أمرهـا، بقـي الرجـل يتصـرف دون شـعور بالقيـد، أو المسـؤولية، أو الواجـب.. وبـذلك بقـي شـعوره بـالالتزام ضـعيفاً أو منعـدماً: لا خطـر يواجهـه، لا تبعـات يخشاها، لا ضـرر ينبغـي تجنبـه، لا ثمـرة يتوخّاهـا.. وبقيـت المـرأة تتصـرف بشـكل معـاكسٍ، يسـيطر عليـه الشـعور بالقيـد، أو المسـؤولية، أو الواجـب، ويحكمـه الشـعور بالالتزام: هنالـك أخطـارٌ محدقـةٌ، وتبعـاتٌ تخشـى، وإضـرارٌ ينبغي تجنبها، وثمارٌ تستحقها التضحية في سبيلها.

ونتيجـة ذلـك، أخـذ الرجـل في علاقتـه بـالمرأة، يتصرّف كطفلٍ كبيرٍ.. طفـلٍ مـدللٍ لـه الحـق بكـل مطالبـه.. وما على العالم حولـه إلا أن يلـبي لـه طلباتـه.. ولكنـه لـيس ذلـك الطفـل الصـغير، الـذي تعـوزه الوسـائل،

والإمكانيات، فيحقق من خلال ضعفه توازناً مع أطماعه، بل أنه كبيرٌ، وواعٍ، ويعرف كيف تؤكل الكتف، ولديه كل الإمكانيات التي تساعده على ذلك.

وفي المقابل نجد المرأة تعالج ضعفها، بالحيلة، والمكر، والدهاء.. على دماغها أن يعالج قصور إمكانياتها.. على ذكائها أن يحقق لها التفوق الذي تطمع به.. فهل تترك العضلات الجسدية والمالية التي يتميز بها الرجل تحكم عليها بالعبودية؟؟ وكانت إجابتها على مدى التاريخ "لا، فالوحش يمكن ترويضه بالصبر، والتحايل، والمراوغة".

الرجل لا يحسب حساباً لشيءٍ، والمرأة لديها كل الحسابات.. الرجل يقول للمرأة كل ما يريد، بل وحتى كل ما لا يريد.. أما المرأة فتتعلم كيف تجعل الرجل يقول ما هي تريد.. الرجل "بطلٌ" يتباهي بصولاته وجولاته.. وفي المقابل المرأة "انسحابية" ولو شكلياً..

الرجل متلهفٌ ومتدفقٌ، والمرأة باردةٌ وسلبيةٌ.. الرجل يطلب، والمرأة تمنع، أو تتمنّع.. والكذب سلاحٌ مشتركٌ يشهره كلٌ في وجه الآخر.

يخطئ من يظن أن الانقسام سمةٌ من سمات التخلف، ولا يوجد إلا في دول العالم الثالث فقط لا شك أن دول العالم المتقدم، شهدت تغيراً كبيراً في هذا المجال، إلا أن المعادلة بنمطها السلوكي، ما زالت تجثم على صدر العالم كله، مهما اختلف نصيب رقعةٍ أو أخرى، من مستوى التحضر.

ويخطئ أيضاً من يظن، بأن الثقافة رغم ما أدخلته من تغيرات على سلوك كل من الرجل والمرأة، قد استطاعت أن تخرجهما من هذا النموذج السلوكي البدائي. فما يزال الرجل والمرأة مثقفين حتى تتحرك بينهما العاطفة، فتجدهما قد انقلبا في تعاملهما، مع بعضهما البعض، إلى شخصين في غاية العاميّة. إنه

قانون السوق، الذي لا علاقة له بثقافةٍ أو ذكاءٍ، كلٍ من المشتري والبائع: هكذا يتم الشراء والبيع.. لن تجد من يتعامل معك وفق قانونك الخاص.. عليك فقط أن تسلك وفق النموذج المرسوم مسبقاً، والترتيبات المعتمدة المعدّة سلفاً، وحتى لو افترض الطرف المقابل، أن نموذجك أفضل، فلن يرى في ذلك سوى سلاحٍ جديدٍ تخترعه، لدخول المعركة القديمة، فيأخذ في البحث عن الكيفية التي يمكنه فيها محاربتك، بما يبدو سلاحاً فتاكاً.

الإشكال يكمن أصلاً في الطمع: طمع الرجل في المرأة، وطمع المرأة في احتلال موقع الرجل. ولن يزول هذا الأشكال إلا إذا قرر الإنسان أن يحتكم إلى ما يميزه عن عالم الحيوان، ألا وهو العقل، الذي يردّ للإنسان إنسانيته التي ضيّعها، فيخرجه من ملكوت الضرورة، ليدخل به ملكوت الحرية. لابد وأن تلعب العملية

المعرفيّة، التي تعاظمت في القرن الأخير، دورها في تغيير معادلة سلوك الفرد –الجنس، من معادلة تنهج شرع الغاب، إلى معادلة تنهج شرع العقل.. من صراع القوة الذي تحرّكه همجيّة الطمع، إلى تضامن العقل الذي يحركه حلم الإنسانية.

صيد الرجال

يطمح الرجل، بحكم تكوينه، إلى أن يرتبط بفتاةٍ. ويسعى، إذا ما لفتت انتباهه فتاة معينة، بجمالها أو بثقافتها أو... أو...، إلى أن يتقرّب منها، محاولاً إنشاء ارتباطٍ. قد تكون صيغة هذا الارتباط صداقةً، علاقةً، خطبةً، زواجاً.. ليست تلك هي المشكلة، وإنما المشكلة، هي أن الفتاة، وبغض النظر عن صيغة الارتباط، تأخذ في الابتعاد.. تبدأ بإظهار نفورها، وعدم رغبتها في الارتباط. والرجل غير المجرّب، سوف يظن أنها ترفضه. والتمييز ما بين الرفض الحقيقي، والرفض المناور، يصعب على الكثير من الرجال.

فماذا يفعل الرجل عندما يُواجَه بالرفض بدل القبول؟ وبالنفور بدل الإقبال؟ بعض الرجال يأخذ الأمر بحساسيةٍ شديدةٍ، وينسحب، ظاناً أنها لا تريده، وأنّ عليه أن يبحث عن فتاةٍ أخرى، يلقى لديها القبول.

أمّا النمط الشائع من الرجال، فيبدون الاستجابة التي تطمع إليها المرأة، وهو أنه يصبح يعتقد أنها صعبةٌ، وبالتالي تزداد رغبته فيها، ويبدأ بالتنازل والتماس رضاها. وهذا هو الوضع الذي تسعى إليه المرأة لتؤسّس عليه الارتباط، وتفرض الصيغة والشروط التي تريدها.

ربما يظنّ الرجل، أن المرأة قد تبدي التمنّع، إزاء العلاقة غير الزوجية، أما في الزواج فسوف يكون من الطبيعي أن تظهر رغبتها، غير أن مثل هذا الظن سطحيٌ، ولا يستند لا إلى التجربة الشخصية، ولا إلى المرجعية الدينية، أو التاريخية.

إن المرأة تتمنّع، حتى في الزواج، وأيضاً بعد الزواج، بحيث يحق لنا أن نقول "لم يعرف النساء، من لم يجرّب تمنّعهن"، فالمرأة عن طريق رفضها تحاول أن تستخرج من الرجل طلبه لها.. تحاول أن تفرض عليه وضعاً معيّناً، لا أن تتخلّص منه، ولنا

خير مرجع في قوله سبحانه وتعالى، في سورة النساء بسم الله الرحمن الرحيم﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: ٣٤]

ويعرف الإمام الرازي في كتابه "التفسير الكبير" النشوز، بأنه معصية الزوج والترفع عليه بالخلاف، وأصله من قولهم نشز الشيء إذا ارتفع، ومنه يقال للأرض المرتفعة: نشز ونشر. ويضيف بأنه روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "كنا معاشر قريش تملك رجالنا نساءنا، فقدمنا المدينة، فوجدنا نساؤهم تملك رجالهم، فاختلطت نساؤنا بنسائهم، فذئرن على أزواجهن، أي نشزن واجترأن، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: ذئرت النساء على أزواجهن، فأذن في ضربهن، فطاف بحجر نساء النبي صلى الله عليه وسلم جمع النسوان كلهن يشكون أزواجهن، فقال صلى الله عليه وسلم "لقد أطاف الليلة بآل محمد سبعون امرأةً، كلهن يشكون

أزواجهن، ولا تجدون أولئك خياركم"، ومعناه أن الذين ضربوا أزواجهم، ليسوا خيراً ممن لم يضربوا. ويضيف الإمام الرازي أن البعض قال: أن حكم هذه الآية مشروعٌ على الترتيب، فإن ظاهر اللفظ، وإن دل على الجمع، إلا أن فحوى الآية يدل على الترتيب، بمعنى أولوية الوعظ، ثم الهجران، ثم الضرب. إن جوهر المشكلة هي قوامة الرجل، وطمع المرأة في أن تسحب من الرجل قوامته، لتمارس هي قوامتها عليه، وفي هذا لا بد من ذكر قوله الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ صدق الله العظيم[النساء: ٣٢]

أما المرأة فتجعل الشرط الذي تباشر على ضوئه العلاقة، وتؤسّس عليه الارتباط، هو قوامتها هي.

والرجل كثيراً ما يجد، أن عليه التنازل، حتى ينال رضاها، فيتنازل ظاناً أنها إنما هي حالة، أو لحظة عابرة ليجد فيما بعد أنها طبيعة العلاقة، وهو إمّا أن يرضخ ساعتها، أو يتمرد. كذلك قد تكون الأزمة كاملةً من صنع المرأة، حيث تظهر في البداية رضاها بقوامة

الرجل، لتعلن حينما تجد أنها قد مكنت لنفسها، التمرد. وهذا هو مصدر الكثير من المشاكل العاطفية، أو الزوجية، ولا حل له إلاّ بالاتفاق منذ البداية حول طبيعة العلاقة، وبتحكيم الشارع عز وجل بها، وحكمه معروف، ألا وهو "قوامة الرجل، وقبول المرأة ورضاها بها".

ومن يتأثر بوجهة النظر المادية، يرى في سيطرة الرجل على وسائل المال والحياة الاجتماعية، التفسير الوحيد لقوامته. لكن فلنسأل أنفسنا "لماذا سيطر الرجل على هذه المسائل؟ لماذا لم تسيطر عليها المرأة؟"، ويشير القرآن الكريم، إلى ما ينفق به بعضهم على بعض، إلا أن يذكر هذا بعد قوله: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ

وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ ﴾ [النساء: ٣٤]

المرأة ليست صنفاً آخر من الرجال.. صنفاً ينجب الأطفال ويطهو الطعام، المرأة كيانٌ عاطفيٌ، بحكم تكوينه، ولا يمكن أن يرضى إلا إذا عومل من خلال هذا المفهوم. وقوامة الرجل، ما هي إلا قوامة العقل على العاطفة. النساء لسن مجردات من العقل، لكن تستحوذ عليهن العاطفة.

وسلطة المال قد تبدو طبيعية بين الرجال، إلا أنها بينهم وبين النساء، سرعان ما تتبدّد، لتحل سطوة الجنس محلها. ولا شك في أن أكبر امبراطوريات المال، تقدم كل سطوتها، قرباناً لرضى زوجات، أو صديقات، أصحاب تلك الإمبراطوريات.

ومن كان يبدي بين الرجال قوةً وسطوةً، قد لا يستطيع التصرّف في ساعة من وقته الخاص، بما لا تأذن به صاحبته.

ولا تتمنّع المرأة إلا لتحكم سطوتها تلك، ويستحيل دور الرجل إلى صائدٍ للمال، يصارع الرجال في سبيل الحصول عليه، وتقديمه إليها، وتصبح هي صانعة القرار، ومحددة المصير.

وتجربتي الشخصية تمدّني بنماذج لا حصر لها من البيوت، التي حين كنت أذهب لاستئجارها، لم أكن أجد لدى رجل البيت إمكانية التفاوض بشأنها، بل كان يطلب مني أن أتفاهم مع زوجته. بالإضافة إلى رجال، كانوا يستميتون في سبيل تثبيت وضع لهم بين الرجال، لكن في بيوتهم، لا يملكون حق التصرف ببعض الدراهم، أو حق توجيه أطفالهم.

إن هـذا الشـرط الـذي تضـعه المـرأة لإنشـاء الارتبـاط، مـن خـلال صـدّها وتمنّعهـا، ألا وهـو إحكـام سـلطتها، أخـذ يصـبح أداة في يـد الطـامعين بهـا للتحايـل عليها، فهي لا تطلـب مـن الرجـل سـوى إعـلان خضـوعه. فلمـاذا لا يعلـن ذلـك الطـامع خضـوعه، ليأخـذ مـا يريـد ويتركهـا بعـد ذلـك. فمـا تظنـه أداة في يـدها، يمكـن أن يكـون أداة ضـدها. وأصـبح مـن يريـد إخضـاع رجـلٍ، يفكر في أن يرسل له امرأةٌ تخضعه.

إن على المرأة أن تعلـم، أن مـا تظنـه سـور حمايـةٍ لهـا، مـن السـهل أن يسـتحيل إلى نقطـة اخـتراقٍ لأمنهـا. ذلـك أنـه لـيس ثمـة مـن مـأمنٍ سـوى الصـراحة، والتفـاهم، والاتفاق، والرضى بحكم الخـالق، وبمـا ميّـز بـه كـل جـنسٍ، من شخصيةٍ، وموقعٍ، ودورٍ.

مؤتمر بكين

ينقسم الموقف تجاه مؤتمر بكين، ما بين مؤيّدٍ متحمسٍ يرى فيه خلاصاً للمرأة من مشكلاتها، وما بين معارض متشددٍ، يرى فيه فساداً وانحلالاً لها. فما هي الرؤية الصحيحة لمثل هذا المؤتمر؟

إن وثيقة المؤتمر قد قررت في البند (43) أن "تمكين المرأة، وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل، هما شرطان أساسيان لتحقيق الأمن السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، والبيئي، لدى جميع الشعوب". وفي هذا حقيقةٌ جوهريةٌ، فالصحيح أنه لا يمكن بحث خلاص المرأة، بمعزلٍ عن خلاص الرجل. فالرجل نفسه يتعرض للفساد، وسوء الأوضاع، وليس من الممكن النهوض بأوضاع المرأة، بمعزلٍ عن النهوض بأوضاع الرجل. فالمسألة، أو المشكلة، أو الأزمة، لا يمكن تصويرها وتلخيصها، على اعتبار أن هناك رجلاً تقابله

امـــرأةٌ، وأن الأول يضـــطهد الثانيـــة كمـــا يـــوحي البنـــد (119).

لقـد سـيطر الفهـم الجنسـي "صـراع الجنسـين"، علـى كـثيرٍ مـن الأذهـان بـالغرب، وحـل مفهـوم الصـراع الطبقـي، الـذي سـبق وأن أطلقـه مـاركس، وثبـت فشـله لقـد أصـبح المجتمـع في نظـر كـثيرين ينقسـم إلى جنسـين متصارعين، وخـلاص أحـدهما يعتمـد علـى انتصـاره علـى الآخر.

هذا ما فعلـه مـاركس ولينين علـى صـعيدٍ آخـر، هـو الصـعيد الاقتصـادي، حيـث قسّـم المجتمـع إلى مسـتخدمٍ (بكسـر الـدال)، ومسـتخدَم (بفـتح الـدال)، الأول: الرأسماليـة والثـاني: البروليتاريـا، واصـطدم هـذان المفكـران بنـزوع وميـل الفقـراء إلى توسـيع مشـاريعهم، لتنمو ويصبحوا هم بدورهم أصحاب أعمال.

لقد أصبح الناس يحتاجون إلى شيطانٍ ليرجمونه، وهناك من اختزن أن يرجمن الرجل، والنظام الذكري، ناسين أن المجتمع هو كلٌ لا يتجزأ، وأن المرأة قد خلقت لتعيش في أسرةٍ، فيها عددٌ من الذكور همُ الأب، والزوج، والأخ، والابن.. فأصبح الرجل هو العدو، وهو الذي يمارس العنف والتمييز، فهل يراد للمرأة أن تعيش في مدنٍ نسويةٍ، تحكمها أنظمةٌ نسويةٌ، وإذا ما كانت الضرورة تفرض المجتمع الواحد، فهل يمكن معالجة الفساد الذي يتعرض له طرفٌ، دون معالجة الفساد الذي يتعرض له المجتمع ككل؟

وفي المقابل، نجد من يعتبر مناصرة حرية المرأة، والحفاظ على كرامتها، وحقوقها، وتطوير دورها، فساداً وانحلالاً، يريد الغرب تسويقه في عالمنا الثالث، متجاهلاً أن أحد الأهداف الاستراتيجية، المنصوص عليها في الوثيقة، تدعو إلى تحسين إمكانية حصول المرأة على

التـــدريب المهـــني، والعلـــم، والتكنولوجيـــا، والتعلـــيم المتواصـــل، وأن البنـــد (84) يوصـــي باتخـــاذ تـــدابير إيجابيـــةٍ، تفـــتح للمـــرأة مزيـــداً مـــن فـــرص الـــدخول والمشـــاركة، في المجـــالات التقنيـــة والعلميـــة، وصـــوغ سياســـات وبـــرامج تشـــجيع المـــرأة علـــى المشـــاركة في كـــل بـــرامج الـــتمهّن (الاشـــتغال بـــالمهن)، واشـــتراك النســـاء في القـــرارات الاقتصـــادية خصوصـــاً، عـــن طريـــق المنظمـــات النســـائية العاملـــة علـــى مســـتوى القواعـــد الشـــعبية، ومـــن خـــلال مســـاهمتها في التســـويق، والأعمـــال التجاريـــة، والعلـــم، والتكنولوجيا.

فهل هذا يتنافى مع الحديث النبوي الشريف، الذي ينص على أن "النساء شقائق الرجال"، والآية الكريمة التي تقول بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ التوبة: ٧١ ؟ وهل يتنافى هذا مع مفاهيم، وأسس، التكافل، والتنمية الاجتماعية، التي حرص عليها الإسلام أشد الحرص؟ أم أن المطلوب هو ترديد هذه المفاهيم كشعاراتٍ، لا علاقة لها بسلوكنا في الحياة اليومية؟

لقد شهدت الحركة النسوية إساءات للرجل، والمرأة، بل حتى الأبناء أيضاً.. فهناك المطالبة بإباحة الإجهاض، في كافة الحالات وليس في حالات الضرورة الصحية فقط) وهناك الدعوة إلى عدم ربط الجنس بالأسرة والزواج، وهناك المطالبة بحق أبناء الجنس الواحد، بتشكيل أسرةٍ، وتبني الأطفال. ولا شك أن مثل هذه المطالبات، تشكّل تطرفاً واعتداء على التشكيل الاجتماعي، بما فيه المرأة، ولكن هذا التطرف يجب أن لا يجعلنا ننسحب إلى تطرف مضادٍ، يبعدنا عن نصرة قضية المرأة العادلة. وقد تنبه الفاتيكان إلى أهمية مثل هذا الدور، فقد رأي أهمية أن يتدخل لتعزيز دور الأسرة، فاقترح إضافة نصوص، يشير أحدهما إلى

أهميـة المـرأة في الأسـرة، الـتي تشـكل الخليـة الأساسـية للمجتمع بنـد (30)، والثـاني يؤكـد الـدور المحـوري، الـذي يؤديـه الـدين في حيـاة ملايـين النسـاء (31)، وهنـاك إشـارة واضـحة في نـص آخـر، إلى أن صـياغة الاسـتراتيجيات والسياسـات مسـؤولية كـل بلـدٍ، مـع الاحـترام الكامـل لمختلـف القـيم، الدينيـة، والأخلاقيـة، والتقاليـد (9). هـذه النصـوص جـرى تقـدمها وهـي تقـدم مثـالاً إيجابيـاً علـى مناصـرة قضـية المـرأة، مـن خـلال ربطهـا بـالتكوين الأسري، والفهم الديني.

لطالمـا كـان البشـر يفضـلون الإجابـة بـنعم أو لا، وطالمـا كـانوا يحشـدون الحشـود وراء أحـدهما، ودفعـوا دمـاءهم، وأبنـائهم، وحقـوقهم، الـتي مـن أجلـها تحركـوا، ثمناً لشعارٍ متطرفٍ.

وقـد لخـص الإسـلام الموقـف الحقيقـي بـ"الوسـط" و"الاعتدال".وهـذا لا يعـني الوسـطية أو القـول بنصـف

الحق، بل الاعتدال في تعريف مفهوم الحق، وعدم المبالغة والتطرف، وإلا كانت المبالغة في حد ذاتها اعتداءً، يجرّ سلسلةً من الاعتداءات، والاعتداءات المضادة، وهي أفضل وسيلة لإضاعة الحقوق، حيث يضيّعها صاحبها، تحت شعار العمل من أجلها.

ولو كانت المرأة تعيش أوضاع خيرٍ، وكرامةٍ، ورفاهٍ، لما أعطت أذناً صاغيةً للحلول الخاطئة، ولو كانت هذه الحلول صحيحةً، لشهدنا في تطبيقها الذي تتفاوت درجته، من بلد إلى آخر من بلدان الغرب، خلاصاً.

وبدل الانقسام إلى أحد المعسكرين: معسكر قضية المرأة، ومعسكر أعداء هذه القضية، يجدر بالطرفين البحث عن الحل الحقيقي، لمشاكل المجتمع ككل، وعدم تناسي أو إهمال البعد النسوي فيه. المطلوب هو المشاركة الإيجابية، التي تستهدف تقديم ما بحوزتنا من

مفـاهيم ونظـم، إلى ذلـك الكـائن الـذي يحتاجهـا، ونحتـاج نحـن اتباعـه لهـا، بعيـداً عـن الـدور التقليـدي الـذي اعتـدنا أن نمارسـه في التقوقـع علـى الـذات، ورفـض كـل مـن لا يعتمـد مـا بحوزتنـا مـن مفـاهيم نخفيهـا نحـن عنـه بـدل أن نقدّمها لـه، ونسـعى لرفـد طموحـه نحـو الخـلاص، بـالكنوز الإسـلامية الـتي نتغنّـى علـى العـالم بهـا، وتدنيـه في الوقـت ذاته على افتقاره إليها.

الهويّة الجنسيّة

((الله، والـدين، والمفـاهيم بشـكلٍ عـامٍ، مـا هـي إلا قضايا تخضـع لنسـبية الاعتقـاد، بمعنـى أن كـل فـرد يفهمهـا كما يشـاء، ولـيس ثمـة أي شـيء يقيـده، لا شـيء يحـدّه، لا شـيء يلزمـه. مـا كـان في السـابق قـوانين مقدسـة حرّمـت كـل شـيء، مـن البحـث العلمـي، إلى مجـرّد الـتفكير، لا مكان لـه الآن. العصـر عصـر تحـرّر الإنسـان مـن كـلّ قيـدٍ علـى فكـره، أو اتخـاذ قـراره الفـرديّ، الـذي يتماشـي مـع طلباتـه الفرديّـة، والـتي تعتـبر متعلقـة بـه وحـده، ولا شـأن للمجتمع، أو الدين، بها)).

هكـذا يفكـر المجتمـع الغربـي، ويشـكّل معيـاره البشـري. ومـن أبـرز هـذه الحريـات، الحريـة الجنسـية. لقـد أصـبح المرجـع الوحيـد، في تقيـيم السـلوك، وخاصـة السلوك الجنسـي، هـو الفـرد نفسـه. بمعنـى أن لا حكـم، إلا الرضى الفردي.

مـن الصـحيح أن القـوانين العامّـة لعصـور الظـلام، أدّت إلى ردّ الفعـل الفـردي-النسـبي، إلا أن مـن الصـحيح أيضـاً، أن ذلـك الخطـأ قـد عـولج بهـذا الخطـأ.. ذلـك الضلال البعيد، قد عولج بهذا الضلال البعيد.

فمـن الـيقين أنّ هنـاك طبـائع عامّـةً، بـل حتـى يمكننـا أن نطلـق عليهـا وصـف القـوانين الشـاملة الـتي تـنظّم سـلوك البشـر، والكائنـات الحيّـة الأخـرى مـن تلـك الأساسـيات، أنّ البشـر، ومعظـم الكائنـات الحيّـة تنقسـم إلى ذكـر وأنثـى، يرتبطـان بعلاقـة زوجيّـة، بلـتحم فيهـا الجنس بالتناسل، وينتهي إلى عادة إنتاج الحياة.

هـذا، إلا أنّ المفهـوم الغربـي المعتمـد والـذي يشـكّل معيـار تلـك المجتمعـات السـلوكيّ وحتـى التشـريعيّ، يمكـن تلخيصـه في القاعـدة التاليـة: (إنّ الـدور الجنسـي مسـألة تنفصـل تمامـاً عـن الـدور التناسـلي، وكـذلك فـإن الـدور الجنسي مفهوم يقرّره كـلّ فـردٍ كمـا يشـاء). بمعنـى أن لـيس

هناك طبيعيةٌ عامةٌ ومعيار موحدٌ سوى أن كل فرد يقرر دوره الجنسي، وبشكل ينفصل كل الانفصال عن الهدف التناسلي للوظيفة الجنسية.

لقد أصبح من حق الفرد أن يطالب، بل وأن يشرّع، حقه في الارتباط الجنسي المثلي. بمعنى أنّ الرجل، أصبح من حقه الارتباط الزوجي برجلٍ آخر، والمرأة بامرأةٍ أخرى، وأن يعتبر هذا الارتباط أسرةً طبيعيةً. وأن تعتبر هذه العلاقة شرعيةً وقانونيةً، بمعنى أن تدخل منهاج التعليم الجنسي في المدارس، وأن تكيف وفقها قوانين الإرث، بمعنى أن يرث الرجل زوجه، والمرأة زوجتها. وأن يحق للأسرة المثلية (رجلان معاً، أو امرأتان معاً) أن تتبنّى الأطفال للتعويض عن عجزها التناسلي.

لقد بلغ مفهوم الحرية حدّ حرية الشذوذ، وبلغ حدّ الشذوذ التشريع، فماذا بعد ذلك؟ لقد ظهر ما هو

أبعد من ذلك؟ إن النتيجة الطبيعية لما سبق، هو أن يحق للرجل أو المرأة التساؤل: (ما هو الدور الذكري؟ وما هو الأنثوي؟ من قسّمنا إلى ذكور وإناث؟ ومن حدّد لنا مسبقاً الشخصية الجنسية التي علينا اتخاذها؟ يحق لرجل أن يمارس دوراً أنثوياً ما دام يرتاح إلى ذلك؟ ويحق للمرأة أن تمارس دوراً ذكرياً ما دامت ترتاح إلى ذلك).

إن آخر ما يطرح وبقوةٍ في الغرب، هو أن ثمة فارقاً أساسياً بين التكوين والهوية، حيث يكون التكوين مفروضاً على المرء، في حين تكون الهوية اختيارية، بمعنى أن من تمام التحرر، أن يستطيع المرء أن يغير التكوين، ليتلائم مع الهوية التي يختارها لنفسه.

وهذا يعني أن من حق الرجل أن يسلك سلوكاً أنثوياً، وأن من حق المرأة أن تسلك سلوكاً ذكرياً، وحق الهوية لا يقف عند حد السلوك، بل يتعداه إلى تغيير

التكوين. وهذا يعني أن من حق الرجل أن يصبح امرأة، وأن من حق المرأة أن تصبح رجلاً.

لا ينتهي الأمر عند حرية اختيار الدور الجنسي، وتشريعها، بل يتعداه إلى التكوين العضوي.. إن الشخص الذي يمارس دوراً جنسياً، يتعارض مع تكوينه، سوف يشعر بالتناقض. إنه رجل، ويسلك سلوكاً أنثوياً، أو أنها امرأة وتسلك سلوكاً ذكرياً. إن الجسد تحديد، وأصبح الشخص المثلي يعتبر نفسه أسيراً في جسده، إنه رجل من حيث الجسد لا الروح أو النفسية أو الشخصية، وإنه يحتاج إلى أن يغير جسده بما يتلائم مع شخصيته الجنسية التي يعتبرها حقيقية، بحيث يصبح امرأة، فكراً، وسلوكاً، وجسداً. وكذلك المرأة، تعتبر أن من حقها أن يقبل المجتمع باختيارها لدور الرجل الجنسي، بحيث يعاملها كرجلٍ فكراً، وسلوكاً، وجسداً. وظهر مفهوم "التحول الجنسي TRANSEX".

آخر مفهوم للهوية الجنسية هو تغيير الجسد، بما يتلائم مع الذهن. وما هو أبعد ، مع الأسف، أن بعض الأطباء أقرّوا ذلك الحق، وإن اشترطوا إصرار المتحول عليه، فذلك ليضمنوا عدم تراجعه فيما بعد، ومقاضاته لهم، على نزوةٍ منه استغلوها. أصبح الجراحون يجرون عمليّات للتحوّل الجنسي، وكأن من يزيل أعضاءه التناسلية الخاصة لجنسه، ويستبدلها بأعضاء صناعية تشابه ما يخصّ الجنس الآخر، يكون قد غيّر جسده، بما يتلائم مع طموحه الجنسي، فأيّ نساءٍ صنع أولئك الرجال من أنفسهم؟ وأي رجالٍ صنعت تلك النسوة من أنفسهن.

وأخذت هذه الظاهرة تغزو المجتمعات الإسلامية، والعربية، وأخذ يظهر هناك متحوّلون، من بين صفوف المسلمين والعرب. وأخذت تظهر المقابلات الصحفية معهم، والتغطيات الصحفية عنهم. المسألة أبعد بكثيرٍ

مـن الهجـوم علـى التقليـد، أو الـوعظ المتعـارف عليـه، أو بث الشـجون،.. إلى آخـر ذلـك مـن القـول الـذي اعتـاد أن يخرج به المتزمتون.

إنّ المسـألة هـي تبيـان أفـقٍ: مـا يجـري (هنـا وهنـاك)، ومـا هـي دائـرة الصـراع الجديـدة (الجنسـية الغيريّـة ضـد المثليّة)، ودعـوةٌ لكـل مـؤمنٍ بـالله، أو بالنظـام الطبيعـي، إلى أخذ موقعه في هـذا الصـراع، قبـل أن نشـهد تطـوّر الشـذوذ إلى سلطة، أو بكلماتٍ أخرى "دولة الجنسية المثلية".

الحقيقة

شـهدت العصـور الحديثـة ظهـور أفكـارٍ جديـدةٍ تعـارض معارضـةً كليـة مـا كـان سـائداً مـن مسـلماتٍ، وربمـا كانـت العلـوم الطبيعيـة هـي أول مـن فـتح ذلـك البـاب، الـذي بقـي مقفـلاً لقـرون وقـرون، فخـرج العقـل البشـري ليتـنفس الهـواء الطلـق، ويـنعم بضـوء الشـمس، بعـد أن كـان حبـيس قيـودٍ ومسـلماتٍ لا تقبـل الجـدل، أو النقاش.

منـذ أن أصـبحت الأرض تـدور حـول الشـمس-في وعـي البشـر، أصـبحت كـل الحقـائق والمسـلمات، أو مـا كـان يعتـبر كـذلك، يـدور، وأصـبح كـل شـيء موضـع تسـاؤلٍ وشـكٍ وريبـةٍ. لم يعـد الفـرد يقبـل بفكـرةٍ، أو مفهـومٍ مـا، علـى أنـه بديهيـةٌ بـل، أضـحت كـل بديهيـةٍ، بحاجـة إلى تمحـيصٍ وإثبـاتٍ حتـى يـتم اعتناقهـا والمنـاداة بها.

ثـورة الشـك هـذه كانـت إيجابيـةً وبنـاءةً بالتأكيـد، حيث أنهـا أخرجـت العـالم مـن إحـوال، وجهـلٍ، وتخلّـفٍ، سـيطرت علـى مـدى قـرون عديـدةٍ، وأخرجـت إلى النـور قـوىً كانـت فاعلـة في الظـلام، وكـان الإنسـان يتصـرف، علـى اعتبـار أنهـا غـير موجـودةٍ طالمـا أنـه لا يـدركها، ويكشـفها. كشـفت عـن القـوانين الـتي تحكـم وجـود الإنسـان، وكيانـه، ووضـعت هـذه القـوانين ضـمن مجـال سيطرة الإنسان، وفعله، وتدخّله.

لكن هذا لـيس كـل شـيءٍ، فالمسـألة كانـت أكـبر مـن أي تلخـيصٍ، وشـهدت تعـايش الهـدم والبنـاء في فعاليـة معـولٍ واحـدٍ، فنـور العقـل الـذي عـمّ وبـدّد ظـلام مسـلمات القـرون الوسـطى، اعتمـد علـى قـواه الذاتيـة ولم يوجـه نظـره إلا نحـو مـا يمكـن أن يشـكل أساسـاً يقينيـاً لا يمكـن أن يختلـف عليـه اثنـان، فكـان أن اعتمـد البرهـان المادي والتجربة.

صحيح أن هذا المنهج هو منهج العلوم الطبيعية، والتي لا تقر بحقيقةٍ دون أن يمكن إثباتها في المختبر المغلق أو المفتوح، لكن العلوم الإنسانية أيضاً، أخذت تحاول الاستفادة، من منهج العلوم الطبيعية، لتطبّقه على دراستها للفرد والمجتمع، فكانت محاولاتٍ رائدةً، إلا أنها لم ولن تستطيع التعامل مع الظاهرة الإنسانية، استناداً إلى التجربة والمختبر وحدهما. هنالك أبعادٌ أساسيةٌ لا يطالها هذا المدخل، والجميع حتى دعاة المنهج العلمي ينطلقون من هذا الفراغ، محاولين سدّه بافتراضاتٍ تدّعي العلمية ولا تبلغها.

نتيجة ذلك الشك، وتلك الاكتشافات العظيمة، وذلك الفراغ في الميدان الإنساني، سيطر مفهوم النسبية على مناطق الوجود والسلوك البشري. لم تعد هنالك حقائق عامةٌ أو كليةٌ، يمكن التوصل إليها بالتحليل العقلي، ولم يعد هنالك ما يمكن أن يتفق عليه الجميع،

فأصبح كل شيءٍ، موضع رأيٍ، لا موضع يقينٍ حقيقيٍ. بل الحقيقة نفسها لم يعد لها كيانٌ موضوعيٌ مستقلٌ، عن إدراك الإنسان لها، فأصبحت الحقيقة ما يعتبره المرء حقيقةً وليس لها صفة العمومية، وأصبح من غير المقبول أن نقول أن هذا صحيح، وذاك خطأ، بل أصبح مثل هذا القول يفتقر إلى الشرعية. الشرعية الاجتماعية تقول بأن هذا صحيح بالنسبة لفردٍ معين، وقد يكون خطأ بالنسبة إلى آخر. الحقيقة أصبحت لا وجود لها، واحتل مكانها الرأي، ولبس ثوبها معلناً ذاته. باعتباره الحقيقة، التي يتوصل إليها فرد من الأفراد.

صحيح أن لكل فردٍ رأياً وقد يتفق مع غيره، وقد يختلف، لكن يبقى هنالك وجودٌ للحقيقة العامة، مستقلٌ عن رأي الأفراد، ويبقى الرأي محاولة للتوصل إلى تلك الحقيقة، لا يحق لها أن تحل محل الحقيقة ذاتها. ليست الحقيقة نسبيةً، وليس لكل فرد حقيقته، وليس

المختبر هو الحكم الوحيد، فيما يتعلق بالظواهر الإنسانية التي لا يمكن إخضاعها للتجارب العلمية، بهدف التيقن من أحكامنا بشأنها.

في نفس الوقت، الذي ثار فيه العقل على المسلمات، فقد قواه التحليلية أمام التجربة. لقد وجد نفسه عاجزاً أمام مسألة الوجود فاحتكم إلى المشاهد.. ألا وهو المادة والتجربة. في نفس الوقت الذي أعلن فيه العقل سيادته على الكون، ركع أمام جبروت المادة، ولم يثق بقواه التحليلية كطريقٍ للوصول إلى الحقيقة. وعندما لم تأته المادة بالإجابة، وبقيت الطبيعة صامتةً، ورأى أنه لا يمكن اتفاق البشر على رأيٍ واحدٍ خرجت كلمة الحقيقة الموضوعية من قاموسه، وأصبحت مسألة نسبية تختلف من فردٍ إلى آخر، وبدل أن يعتبر أن هناك آراء، أصبح يعتبر أن هناك حقائق، وأصبح كل فردٍ يعيش ما يحلو له من حقيقةٍ، ولا يحق لأحد أن يقول له

أنت مخطئٌ، فالصواب هو ما تراه صواباً، وليس هناك ما يمكن أن يعلو على التجربة، حتى ظهرت مدارس تنادي، بأنه لا يحق لك نفي مفهومٍ، أو فكرةٍ، قبل أن تجربها.

لكن كما كانت الأرض تدور حول الشمس، رغم ادعاء كل الناس أو معظمهم، في فترةٍ ما، بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض، كذلك تبقى الحقيقة العامة موجودةٌ، حتى لو قال الإنسان بغيابها. وما لا يمكن للإنسان التوصّل إليه بالتجربة، يمكن له أن يتوصل إليه بالتحليل العقلي. نعم التحليل العقلي، هو ما يفتقر إليه دعاة العقل، حين احتكموا للتجربة، واختلاف التحليلات العقلية، يعني اختلاف الآراء، لا اختلاف الحقائق.

العقل والإيمان

يسيطر على الناس وهم الاعتقاد، بأن الفكر والدين، العقل والإيمان، أمران مختلفان، بل ومتعارضان، ولا إمكانية للتعايش بينهما، فإما أن تنقاد انقياداً لا واعٍ، وتصبح من أنصار الدين-حسب ظنهم، وإما أن تفكر، وتشك، وتتساءل، وتحاول أن تتعقل، فتصبح-حسب ظنهم أيضاً من المعسكر الآخر المناوئ للدين، فنجد الكثيرين من أنصار الدين يناصرونه على اعتبا أنه محض اتباع لا مكان للعقل فيه، ونجد معظم من يعارضونه لأنهم يظنون أنه محض اتباع يفرض على عقولهم حالة من الجمود والانغلاق لا فكاك منها.

إن الدين لم ينكر دور العقل في يوم من الأيام، وإذا كان بعض من أنصار الدين انكروا العقل فليس من المقبول أن نرجع في فهمنا وتقديرنا لحكم الدين إليهم بدل الرجوع إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ونستمع إلى قوله الحكيم بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا

يعلمون وبأن في آياته تذكرة وعبرة لأولي الألباب. لقد وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ومن الواضح أن المقصود بكلمة القلب باطن الإنسان الذي وظيفته التعقل وهوماً نسميه بلغة العصر الدماغ الذي وظيفته أن يفكر.

ووصف المؤمنين بأنهم يستمعون للقول فيتبعون أحسنه، وظن البعض بأن المقصود بالقول هنا القرآن الكريم، لكن مثل هذا الظن مخطئ فلا يجوز أن يستمع لكلام الله بهدف اتباع أحسنه حيث أن كل كلامه حسن يجب اتباعه. لكن المقصود بالقول هو الحوار أو الجدل العقلي أو التيارات الفكرية أو المواقف الحياتية ميزة المؤمن هو أنه يصغي وبكلمات أخرى يطلع على وجهات النظر المختلفة فيفكر بها ليرى أحقيقة كل مها ويختار التوجه المحق. المؤمن أذن يتبع عن وعي وإدراك وتبصر وتمحيص لمختلف وجهات النظر. ترى هل نتبع

هــذا الحكــم الربــاني في حياتنــا وفي أســلوب انتهاجنــا للمواقف والتوجيهات التي نختارها؟

والعقــل أيضــاً لا ينكــر الــدين إلا إذا كــان هنــاك خلـل في عمليـة التعقـل أو في فهـم الـدين، فالعقـل يطلـب الحـق والصـالح العـام والأدلّـة، ويطلـب المعرفـة والـيقين ويبحـث عـن الاتجـاه الصـحيح، ولـيس بمقـدوره وحـده أ، يجيـب علـى مـا لديـه مـن تطلعـات ولـيس سـوى خالقـه الـذي هـو أقـرب إليـه مـن حبـل الوريـد أدرى بحاجاتـه ومصـالحه وقـادر علـى أن يهديـه. مـن أخلـص اسـتحق بإخلاصـه الهدايـة أمـا مـن سـعى في سـبيل أطماعـه فـلا هداية له وهذا هـو معنـى أن الله يهـدي مـن يشـاء، ولـيس أفراداً دون آخـرين لشـكلهم أو لمـا لهـم أو لأي سـبب عـدا الحق الذي شكل محور الرسالة الربانية.

والعقــل إذا مــا تجــرد عــن أطماعــه قــادرٌ علــى اسـتيعاب الرسـالة الربانيـة حيـث أن الله أرسـل للإنسـان

مـا يسـتطيع هـذا الإنسـان أن يسـتوعبه، ولم يكلفـه بمـا لا طاقة له به.

ولنـا في مثـال إبـراهيم عليـه السـلام وحيرتـه وشـكه وبحثـه عـن الربوبيـة خـير مثـال كلنـا يعـرف تنقـل عقـل إبـراهيم مـن الشـمس إلى القمـر ليجـد في كـل منهمـا الـنقص والبعـد عـن صـفات الربوبيـة ثـم انتهـى إلى أن الله سـبحانه وتعـالى هـو الأقـدر علـى الوصـول إلى عبـده، ولـيس العبـد بالقـادر علـى الوصـول بفكـره إلى ربـه إن لم يقـم ربـه بهدايتـه، وأن هـذا يحـدد دور العقـل وحاجتـه الماسة إلى هدايـة ربـه، ولا يتضـمن انتقاصـاً للإنسـان الـذي يبحـث ويحـاول أن يتعقـل ويتحـرى الحقيقـة، فكـان أن اتخذ الله إبراهيم خليلاً.

يجـب أن لا نقـع في تفكيرنـا أسـرى للتطـرف والمغالاة بحيث نقبـل الفصـل بـين العقـل وبـين الـدين، بـين الفكر وبين الإيمان، وكـثيراً مـا نجـد مـن يـبرر هـذا الفصـل

تحت ذريعة الحفاظ على أحدهما من شوائب الآخر فنرى نصير الدين يخشى أن يحرفه الفكر أو يخرجه عن دينه ونرى نصير العقل يخشى أن يحول الدين بينه وبين تعقله وسعيه في سبيل الحقيقة.

إن الله سبحانه وتعالى عندما يوجه كلامه إلى الإنسان فإنه يخاطب فيه عقله، وحسن تفكيره، وإخلاصه في تحري الحقيقة وطلب الحق لو تأملنا كلام الله سبحانه وتعالى لوجدناه مخاطبة لهذا العقل وهداية له وهداية الله للعقل لا تعنى أن العقل عاجز وأن المطلوب منه التوقف عن العمل، بل الله يريد لهذا العقل أن يعمل وهدايته له توجيهه لعمله وفعالياته لا منعاً لها فكما أن الرزق الرباني ثمرة للعمل والسعي، فإن الهداية ثمرة للفكر وأعمال العقل.

وإذا ما فهم الدين من خلال هذا المنظور لا يعود هناك مبرر لنصير الفكر في أن يخشى من الدين فالدين يأمره أن يفكر ويبحث ويطلع ويستمع ويحكم عقله

ليصل قرارة نفسه إلى أن الحياة من غير إيمان ديني عبث ولا معقول وهو يعرف أكثر من غيره حاجته إلى رب يهديه وينير له طريقه، والله سبحانه وتعالى كلّف من وصلته رسالته بمن لم تصله الرسالة ترى هل قدمنا مثلاً سلبياً يشجعهم على المضي بعيداً عن الدين؟

عندما يقول أنصار الفكر أن الدين والفكر لا يجتمعان، ترى هل نحن نموذج هذا الفراق؟ وعندما نقول أن الإسلام هو دين العقل، فهل نشكل نموذجاً لهذا العقل؟ هذه أسئلة لا بد لنا منها إن أردنا وجه الله سبحانه وتعالى وإن حرصنا على نيل رضاه، فالدنيا دار سعي، والفكر أول خطوات السعي، لأن العمل بدون فكرٍ يصبح كالحرث في البحر.

الأساس أولاً

إن الأساس الذي يستند إليه أكثر أصحاب الأديان، يتفق مع الأساس الذي يستند إليه أصحاب التوجّهات المادية، وكذلك العلمانية. فهم جميعاً ينظرون إلى حياة الإنسان باعتبارها واحدةً، ولا خلاف بين فردٍ وآخر، إلا في الانتماء المذهبيّ، أو ما قد يسمونه الأخلاقيّ، ويلخصون ذلك في الابتعاد عن بعض "المحرّمات".

ينتج عن ذلك أنّ سلوك الإنسان في تسيير شؤون حياته أمرٌ واحدٌ ومشتركٌ، يتفق عليه الجميع، ويبقى لكل فرد بعد ذلك خصوصيته المذهبية. ومن هذا الأساس نشأ "الفهم النظامي"، بمعنى معالجة شؤون الحياة كمجموعٍ بشريٍ، على النطاق القوميّ، أو العالميّ من خلال "نظامٍ".

وفي الردّ على أصحاب الأنظمة "الوطنية"، أو "الليبرالية"، أو "الاشتراكية"، خرج البعض بفكرة النظام

"الإسلامي"، كمعالجةٍ نظاميةٍ تستند إلى الانحياز الإسلامي. ومثل هذا الفهم لا يرمي إلى ما هو أبعد من صياغة التحريمات، في تشريعاتٍ قانونيةٍ وضعيةٍ، وإلباسها رداءً سماوياً. فالأساس في المعالجة الدينية للحياة البشرية، هي معتقد الفرد: ما الحيز الذي يقدمه كل فردٍ لله عز وجل، في حياته اليومية؟ وعلى الأساس الاعتقادي يتم إنشاء القوانين النظامية، ولا يمكن، بأي حال من الأحوال، التعامل مع الدين باعتباره نظاماً مجرداً.

أما القول بأن الاعتقاد موجودٌ، ولا يبقى سوى تأطيره تأطيراً نظامياً، فهو قولٌ يجهل كل الجهل حقيقة الاعتقاد، ذلك أن التوارث وحده، عنصرٌ لا يمكن أن يكون كافياً، لتشكيل هويةٍ اعتقاديةٍ، ولنا في قول الخالق سبحانه وتعالى "﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ ﴾ الحجرات: ١٤"، كل عبرةٍ لا يمكن أن نعتبر أي وضعٍ نظامي، حتى لو رفع شعاراتٍ إسلامية، مجتمعاً إسلامياً، إذا لم تسد في أوساط مواطنيه الروح والمفاهيم

الإسلامية الحقيقية، إلا إذا كنا نستبدل "اسلام المؤمن" بـ "اسلام الإعراب" هل يمكن أن يعالج تشريعٌ إسلاميٌ، وضع أناسٍ لا يحملون اعتقاداً به؟

إذا كان الحديث النبوي يكفّر من غش، "من غشنا فليس منا"، فكم يخرج هذا الحديث من أبناء الأمة، من بين صفوفها؟ وإذا كان أكثر الناس يردّون من يأتيهم طلباً للزواج، طمعاً في حطام الدنيا الفاني؟ وإذا كانت مفاهيم التضامن والتكافل، لا تخرج عن إطار مجالات "الدعوات المتبادلة"؟ وإذا كان السهر على التفقّه في كتاب الله كريم وأحكامه، يعتبر من واجبات طلبة الشريعة؟ وإذا كان يسود الاعتقاد، بأن نزوع الفرد لأن يضحّي بمصلحته الفردية، في سبيل الأمة، ضرب من الانحراف؟ إذا كان كل هذا، وكثيرٌ مثله، سائداً، فهل يمكن معالجة أمور المجتمع البشري معالجةً نظاميةً، أياً كان النظام الذي يميل إليه الناس، في منطقة أو أخرى؟ إن شيئاً، فالعقل يقول أن الاعتقاد لا يمكن إلا وأن يغير، من

طبيعة حياة الفرد والمجتمع، وأن ما لا يغير، منهما ليس اعتقاداً.. وإن أبينا، فأمامنا تشكيلة كبيرة من الأنظمة، للمفاضلة بينها، لمن يريد أن يشيد صرحاً، لا أساس له.

الأصولية

- الكتاب: "الأصولية المعاصرة أسبابها ومظاهرها.
- المؤلف: روجيه غارودي.
- المترجم: خليل أحمد خليل.
- الناشر: دار عام الفين: باريس.
- التاريخ: 1992.

- الكتاب: "الأصولية بين الغرب والإسلام".
- المؤلف: د. محمد عمارة.
- الناشر: دار الشروق-القاهرة.
- التاريخ: 1998.

ظهرت تسمية "الأصولية"، واحتار العالم فيها، ذلك أنه في حيرةٍ، تجاه الظاهرة الدينية الحديثة، أصلاً وبين المدارس، يمكننا أن نلمس تجاذباً بين قطبين، يلخّصهما كتابان، هما المشار إليهما، يقدّمان منظورين متطرّفين ومتعارضين، لفهم هذه الظاهرة.

يعرف غارودي الأصولية من خلال تبيان مكوناتها الأساسية الثلاثة: أولاً، الجمود، "رفض التكيف"، "جمود معارض لكل نمو، لكل تطور". ثانياً: العودة إلى الماضي، "الانتساب إلى التراث"، "المحافظة". ثالثاً: عدم التسامح،الانغلاق، "التحجر المذهبي"، "تصلّب"، "كفاح"، "عناد". (13) ضمن هذه الرؤية شديدة العمومية، يبدو في عيني غارودي، كل اتجاهٍ أصولياً: من فلسفة التنوير إلى "سان سيمون"، من "ستيوارت ميل" إلى "أوغست كونت"، من "نابليون" إلى "هتلر"، وكذلك استعمال أميركا لحق النقض، أو فرنسة الجزائر.

وفيما يتعلق بالعالم الإسلامي، يعيد غارودي الظاهرة إلى تفوق الغرب وانحلاله. أنه يعيد الحركة الإسلامية الحديثة إلى حضارة الغرب، ويعالج إشكالات هذه الحركة من خلال مناقشته لسياسة فرنسا تجاه المهاجرين، ومطالب البنك الدولي من دول العالم الثالث.

صحيح أن هناك دائماً علاقة بين البنية الداخلية لأي مجتمعٍ، وعلاقاته الخارجية، إلا أن هذا لا يعني إنكار المنبت الداخلي للظواهر التي يعيشها العالم الثالث، واعتبارها مجرد انعكاسٍ لعلاقاته الخارجية، مهما بلغت هذه العلاقات من القوة والتأثير. لقد قاده الحديث عن أميركا اللاتينية إلى تناول مسألةٍ جوهريةٍ بالنسبة للفهم الديني، ألا وهي موقف الفرد، حيث أعاد المؤلف الخلل هناك إلى العلاقة مع أميركا، مما اضطر أحد المفكرين المسيحيين للرد عليه، مبيناً أن هناك

"تكاسل لدى البعض، وهجران للأرض، أو الإدمان على الكحول، والنفقات غير اللازمة والمبالغ فيها.." (43). ويبدو موقفه غير منطقي، بشكل أكثر وضوحاً عندما يتعرض للسياسة، فيعمد إلى تبريرها ورد كل الظواهر إليها في أمريكا اللاتينية، والهجوم عليها واعتبارها غير ذات علاقة، عند الحديث عن قارة أخرى.

ويتعمق اللامنطق، عند دفاعه عن الأديان القديمة لأميركا اللاتينية أو افريقيا، وينسى أن الانتماء إلى تلك الأديان المغرقة في القدم، يشكّل في حد ذاته محافظةً وأصوليةً. إنه أيضاً ينسى، وبشكل كلياً، عالمية العقيدة، وأن عقيدتي المسيحية والإسلام، متقدمتان على تلك الديانات، وأن لهما دوراً عالمياً تمارسانه في تلك القارة.

إنه أسير نسبيةٍ مطلقةٍ، مغرقةٍ في الرؤية الفردية، تلك النسبية التي استمدها من المفكر الفرنسي "جان بول

سارتر"، وطرحها في كتابه "البديل"، ولم يزل وفياً لها حتى الآن. لقد أعلن حرباً شعواء على أي يقينٍ، أو تعميمٍ فكريٍ، بناء على نسبيةٍ، نسي ما أعلن انتماءه إليه في غمارها. لقد جعل من هذه النسبية يقيناً وعمّمه. جعل منها قاعدة مطلقةً يحاكم الجميع استناداً إليها. أنه لم يطبّق مفهومه النقدي على التعميم الفكري الذي يطلقه، ولو فعل لما كتب ما كتب.

إنه أيضاً أسير الماركسية "السابقة"، فلا زال يميز ماركس عن مفكري التراث الإنساني العالمي، ويعتبر أن فكرة كان نقدياً، رغم معرفته التامة، بما دعا إليه هذا المفكر من اختزالٍ للحياة الاجتماعية-الحضارية ضمن رؤيةٍ اقتصاديةٍ محضةٍ. يقول غارودي: "المذهبية تقوم على وهم، أو على زعم الاستقرار في الكائن، وإعلان حقيقته المطلقة؟" ولنا أن نسأل هنا: "ألم يعلن ماركس استقراراً ويقيناً علمياً لفكره؟ ألم يفعل غارودي نفسه

ذلك؟ أنه يريدنا أن نعتبر أفكارنا تأكيداً ظرفياً متناسباً مع معارفنا، ومع تجاربنا الآنية، وأن نحس لسعة نار الأصولية في أي يقينٍ أو ثقة بأفكارنا، فكيف يدعو في نفس الوقت، إلى عقيدةٍ كالإسلام، يستحيل تشييد مفاهيمها، على أساسٍ من التجريبية والنسبية الزمنية؟

بدلاً من الغرق في متاهة أفكار اليمين الفرنسي، من أجل التوصل إلى مرجعية للأصولية، كان عليه البحث في روح منع الاجتهاد، وإدانة كل جديدٍ باعتباره بدعةً، تلك الظاهرة المتأصلة في تاريخ البشر، كل البشر، وليست ناشئةً عن تفوق أمةٍ على أخرى. ولو رجعنا إلى بداية الدعوة الإسلامية لوجدنا أن أول ردٍ عليها كان "هذا ما وجدنا عليه آباءنا...".

ثمة فارقٌ أساسيٌ بين التمسك بالأصل، والعودة إليه بعيداً عن انحرافٍ وتشويهٍ، وبين التمسك الحرفي بالقديم، لمجرد قدمه. وهنا يتأكد دور "فقه التحرير" الذي

يـدعو إليـه غـارودي، في أن يقـيم التمييـز، وأن يـبني الفـارق. أن قـدم الحقيقـة لا ينفـي صـحتها، فلـو اعتـبر الغـرب أفكـار اليونـانيين وحضـارتهم أصـولاً قديمـةً، لمـا نشـأت الديمقراطيـة الحديثـة ومفـاهيم حقـوق الإنسـان، والـتي منهـا يشـتق غـارودي أفكـاره. الإنسـان لـيس بحاجـة إلى "موضـة" "فكريـة" تطـرح في الأسـواق كـل عـامٍ، حتـى يـبرهن علـى تجـدده، وعـدم أصـوليته، وليسـت خصوصـية كل بلدٍ بحاجة إلى "موضـةٍ" فكريـةٍ تخصـها، حتـى تثبـت ذاتهـا وهويتها الوطنية، في دينٍ خاصٍ.

مـن خـلال مناقشـته للمعطيـات العصـرية، يـثير المؤلـف أكثـر مـن لـبسٍ، وأكثـر مـن تسـاؤل: فمـن خـلال حديثه عـن الشـركات متعـددة الجنسـيات، والقنبلـة الذريـة، يحـاول أن يصـل إلى أن القـرآن دعـوة دينيـة وأخلاقيـة، وليس قانونـاً فقهيـاً (87) وبـنفس الـروح يجـرد السـنة مـن دورها وأهميتها (83).

لابد من الإشارة إلى الصحة الجزئية لكثير من أطروحاته، لكننا أمام كوم من الأفكار والآراء والمفاهيم، غير المترابطة، والتي اختلط فيها الغث بالسمين. واتجه سياق هذا كله إلى الخوض في تفاصيل الحياة اليومية الغربية، بدل البحث الجاد المعمق، في المدارس الإسلامية المختلفة، وبدل كيل الاتهام للنازية قديمها وجديدها، كان الأحرى به أن يتوسع في تحليل جدل القديم والجديد، الماضي والمستقبل، السلف والخلف.. لقد جعل من كل شيء أصولية بحيث لم يعد القارئ يرى، بعد كتابه هذا، إلا أصولية تحيط بالعالم وتهدد بابتلاعه. إن تضخيم القضية، ورد كل الظواهر إليها، لا يؤدي إلا إلى محو حدودها، وبالتالي العجز أمامها.

مقابل هذا الطرح، يوجه د. محمد عمارة نقده اللاذع لغارودي، لكن من خلال منظورٍ متطرفٍ هو

الآخـــر.. منظـــورٌ ينكـــر أن ثمـــة أصـــوليةً في العـــالم الإسـلامي، حيـث يبـدأ رده بـالقول أن "المصـطلح غربـي.. ولأصـله العربـي، ومعانيـه الإسـلامية، مضـامين ومفـاهيم أخـرى مغـايرة.."(5). ولا داعـي هنـا، لشـرحٍ مسـهبٍ، مـن أجـل توضـيح أن الموضـوع، لـيس كلمـة ذات اسـتعمالاتٍ مختلفـةٍ في كـل لغـة، بـل في المعنـى الـدلالي المقصـود، والمعـرف في الكتـاب، والـذي هـو واحـدٌ وعـامٌ وعـالميٌ. بعد ذلـك يصـرف عمـارة حديثـه عـن التسـمية، لينتقـل إلى الدلالة، فيؤكـد أن لـيس ثمـة أصـوليةً، بـين تيـارات الفكـر الإسـلامي المختلفـة، القـديم منهـا والحـديث، فيقـول: "إن حقيقـة الجـواب عـن هـذا السـؤال هـي النفـي القـاطع والأكيد (10).

في نفـس الوقـت، فـإن عمـارة يركـز علـى محاولـة غـارودي تبرئـة مـاركس، مـن معارضـته للـدين، وإلى "انحيـازه إلى المفهـوم الـدنيوي الخـالص للفقـه والقـانون،

ذلك الذي جعله يجرد الشريعة الإلهية من الفقه والقانون بدعوى أنها شريعةٌ أخلاقيةٌ، وانحيازه إلى القول بتاريخيه وتاريخانية الأحكام القرآنية". (86-87)

وينتهي عمارة إلى نقد مفهوم الحوار لدى غارودي مركزاً على أن الوحدانية تخص الخالق، والتعدد سنته في خلقه (72). وهنا تكمن مفارقتين هامتين: صحيح أن الله لم يخلق ما خلق دون إحكام مسبق، لكن هل يعني هذا أن التفرّق مطلوب، وأن انقسام البشر إلى أطراف مختلفةٍ، في حد ذاته غايةٌ؟" والثانية: أن عمارة يقع، دون أن ينتبه في الشرك، فغارودي لا يدعو إلى اندماجٍ منسجمٍ ومتناسقٍ، بل حوارٍ لا يقوم إلا إذا كان هناك ذلك التعدد، والقبول به لدرجة تكريسه، وبدون هذين الشرطين ليس ثمة حواريةٌ غارودية.

من منطلقة الرافض، يتهم عمارة دعوة الحوار تلك، بالانحياز لتصورات لن تخدم الأقوى الهيمنة (87). أن فهم عمارة لـ"وسطية الإسلام"، الذي يعبّر عنه في التعددية المؤسسة على الخصوصيات (78)، لا يشكل الرد الحقيقي والصحيح على حوارية غارودي، التي تطالب الكل بأن يعيد النظر في معتقداته الخاصة به. إن إعادة النظر أمرٌ واجبٌ، إلا أنها يجب أن تتم من خلال السعي نحو الحقيقة، لا من خلال هدفية الاندماج بالآخر، بعد تكريس اختلافه. هذه الذات المندمجة، لاحظها عمارة بشكل واضح، وإن لم يتمكن من مساجلتها المساجلة المطلوبة. إن الحوار لابد منه، لكنه لن يتأتي عبر ذلك المنظور الاندماجي، بل عبر عمليةٍ تنويريةٍ تنحاز إلى الحق، وتسعى إلى اللقاء مع أي ذات أخرى على أرضه، بل إن الذات تعرّف نفسها من خلال هذا الحق، الذي يستحيل هويةً لها.

خلاصة القول: إن الأصولية موجودة هنا وهناك، الآن وسابقاً، لكنها لا تنحصر ضمن توجهٍ فكريٍ محددٍ، بقدر ما تنشأ ضمن أي اتجاهٍ، بناءً على ما يريده حامل هذا الفكر، وما يفهمه من فكره، والمخرج لن يكون بتعميم هذه الظاهرة، كما لن يكون بإنكار وجودها، بل من خلال عمليةٍ تنويريةٍ، قادرةٍ على التفاعل الصحيح مع الآخرين، بما في ذلك الحوار مع كثير منهم. إن الوسط الإسلامي ليس "حلاً وسطاً أو "ترضيةً" بين خصمين، بل هو انحياز كليٌ إلى الحق، الذي يعرفه الإسلام بالاعتدال.

وعبر كتابه، وفي أكثر من موقع، يوجه عمارة إلى غارودي تهمة أنه يعتبر كل ما هو غير علماني عبارة عن "سرطانات أصولية"، وذلك من خلال تحليله لتعريف غارودي للأصولية، عبر قوله: "إنها التي تكون نقبض العلمانية" (41). العلمانية، هي الأخرى التي أضحت

موضع صراعٍ، بين هذين المنظورين المتطرفين، فبشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشرٍ، نجد غارودي يعتبرها نزعةً تنويريةً عقلانيةً، بل ومعياريةً، في حين يفرد لها عمارة موقعاً على خارطة الأصولية، لانتسابها إلى التراث اللاديني- والإغريقي منه خاصة" (23). ولو تأملنا وجهتي النظر هاتين، فإن ما تأتي به كل منها، يحوي قدراً لا بأس به من الحقيقة، فالعلمانية يمكنها أن تكون توجهاً إنسانياً عقلانياً تنويرياً، يلتقي مع الدين، ويمكنها أن تكون نزعةً أصوليةً-وضعيةً لأهم لها سوى ممارسة الحرب ضده. المسألة في هذه الحالة، كما في كثير غيرها، لا ترجع إلى معطيات الفكر، بل إلى ذات العارف. ماذا يقصد من خلال توجهه الفكري، أولاً؟ وماذا يفهم، هو نفسه منه ثانياً؟

وأخيراً، وليس آخراً، لابد من الإشادة بالمجهود الذي بذله د. محمد عمارة، في سبيل تبيان أن من

يتمسك بثوابت معتقدة الإسلامي، يجب أن يسمى إسلامياً لا أصولياً.. في سبيل كشف اللبس والوصول إلى الحق.. لكن الموضوع لن يستوفي حقه في كتابين.

العربة والحصان

انهارت المؤسسة الشرقية الكبرى، وانهارت معها الأحلام العظيمة بتصحيح خط المسيرة الديمقراطية العالمية، من خلال حلقةٍ اجتماعية، تكمّل الحلقة السياسية التي حققت هدفها المباشر، وقصّرت عن تحقيق حلم الإنسانية بمدينة فاضلة. هذا الانهيار يضع الشباب أمام فراغ فكريٍ تشكّله المؤسسة الرأسمالية التي فرضت سيادة عالمية، وخرجت من حربها الحضارية، تحمل أكاليل النصر والغار.. انتصرت المؤسسة المالية في حربها ضد أخطر مدرسة فكرية واجهتها، فأي أفق بقي أمام الشباب؟! ليس الشباب فقط، بل الجيل الذي وجد في الحرب ضد الرأسمالية ضالته المنشودة، وأمضي زهرة شبابه في هذه المعركة التي كان يعتبرها مصيرية، هذا الجيل وجد نفسه الآن يعود إلى نقطة البداية مجرداً من السلاح الفكري الذي حمله لمدة تربو على القرن.. عاد هذا الجيل الآن، إلى نقطة البدء ليسأل نقسه.." إلى أين؟!".

"أي طريق انتهج؟" عاد هذا السؤال ليطرح أمام العقل البشري التحدي الوجودي الأكبر، وخرج الأكاديميون ليبشروا ببنىً، أو مناهج فلسفيةً بديلةً، لكن الفراغ بقى فراغاً، لأن المسألة اعتقاديةٌ، وليست أكاديميةً، فالمناهج الجديدة، لم تُعِد طرح الحلم القديم بالمدينة الفاضلة من خلال رؤيةٍ جديدةٍ، بل اكتفت بمحاولة تقديم شرحٍ مغرق في الأكاديمية لمشكلة الحضارة، وفشلت من حيث بدأت، لأن الحضارة ما كانت أبداً مسألة "علميةً"، خارجةً عن معتقد الفرد والجماعة في الحلم بوضعٍ مثاليٍ، يشكّل هدفاً مستقبلياً، يلهم سلوك الفرد اليومي، ويجعل منه واجباً أخلاقياً ملزماً. لقد شهد التاريخ دولاً كبرى، قامت دون هذا الحلم. لكنها لا توصف حتى من قبل الأكاديميين بأنها دول متحضّرةٌ، ولم تترك على حقب التاريخ اللاحق بصمتها.. وإذا ما كانت الرأسمالية الآن، تشكّل وضعاً شبيهاً بهذا، فذلك لأن هذه المجتمعات فقدت حلمها،

مـن خـلال تحقيقـه.. حيـث كـان الحلـم بالديمقراطيـة السياسـية مـن خـلال نمـوذجٍ حضـاريٍ معـينٍ، هـو الحلـم الـذي تحركـت الأجيـال لتحقيقـه، فحققتـه فاتحـة، البـاب أمـام سـؤالين.. هـل هـذا المثـال الـذي كنـا نحلـم بـه؟ وأي درب ننـتهج الآن؟ فكانـت حلقـة الصـراع الاجتمـاعي الذي انحسر، تاركـاً السـؤالين يعـودان مـن جديـدٍ، وبشـكل أقوى.

لـن تكـون هنـاك إجابـةٌ سـهلةٌ جـاهزةٌ، فمثـل هـذا الـنمط مـن الأجوبـة لا يشـكّل أجوبـةٌ.. إن المسـألة في بعـدها الأول، تكمـن في الرجـوع إلى نقطـة البـدء: لقـد شـهد التـاريخ سـيادة الأفـق السياسـي، علـى الأفـق الفكري، وقد حقّـق هـذا السياسـي منجـزات لا شـك بهـا، لكـن هـل تسـتطيع العربـة أن تقـود الحصـان؟ إن الطاقـة الدافعة لكـل حضـارةٍ، هـي الحلـم الإنسـاني الأصـيل، وإذا مـا فقـد الإنسـان ثقتـه بـالحلم، وتـرك للتجربـة الماديـة أن تقوده، وترسم له نهجـه بعيـداً عـن أي حلـمٍ، بـل أن تقـرر

هذه التجربة، أي نموذج نحتذي، فهذا ما يجعل الوضع، كما لو كنا نضع العربة أمام الحصان.

الحلم هو الطاقة الدافعة، المحرك الذي يجعل الآلة تدور، الحصان الذي يقود العربة، من خلال حركته، ورؤيته للطريق.. وبدونه نجد أنفسنا أمام عربةٍ، لا فرق لديها بين درب سويٍ، وبين هاويةٍ قد تنحدر بنفسها إليها.. إنه المقياس المعياري لسوية الحضارة، أو انحرافها، وهو بالتالي صمام الأمان وأداة التوجيه.

على الأفق الفكري- الثقافي- الأخلاقي أن يرسم الحدود للسياسي، ويقّرر له أي نهج يتخذ، فإذا ما فشل السياسي، عاد بخبرة التجربة لينهل من معينه الثقافي، وليتعلم من جديد.. هذا هو الركن الذي ضيّعت فيه الحضارة ذاتها، ولن تجد ذاتها، إلا فيه. وهذا يقودنا إلى البعد الثاني للمسألة، ألا وهو البعد غير المباشر، والذي يشكل الخلفية العقلية للوضع الحضاري، والذي دفع بالسياسي ليتصدر واجهة الموقف: إنه يكمن في العلاقة بين العقل والتجربة. ففي مواجهة عصرٍ، أغفل فيه

الإنسان دور العقل، مكتفياً بطرح مسلماتٍ لا تقبل النقاش، سيطر المنهج العلمي التجريبي من خلال دوره الريادي طارحاً نفسه كمنقذٍ للبشرية وحضارتها، خالقاً النهوض الصناعي والمجتمع الذي أفرزه، وما تشابك ضمن هذا المجتمع من تشكيلاتٍ. لكن ليس بمقدور التجربة، أن تحل معضلة الوجود، وتعبّئ الفرد بمفاهيم المثال والواجب. فوجد الفرد نفسه أسير علاقاتٍ ماديةٍ ماليةٍ، وضحيّة غياب أيّة هدفيةٍ، تعطي معنىً لحياته.

عملاق الإمكانيات هذا، يشبه إنساناً تضخمت يداه وساقاه، وضمر عقله أنه يستطيع الوصول إلى أي شيءٍ، لكنه لا يعرف ماذا يفعل به. هذه هي حضارة العالم الآن. ولن يخرجها من مأزقها، سوى العودة إلى العقل النقدي، ليقوم من جديدٍ مستفيداً من دروس التجربة برسم صورة الحلم الإنساني، ويقود الآلة الاجتماعية-الاقتصادية-السياسية، بدل أن تقوده هي. هذا هو الأساس الذي تشاد عليه الحضارات.

قدرنا

- الكتاب: "صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام" العالمي.
- المؤلف: صامويل هنتنفتون.
- المترجم: طلعت الشايب.
- الناشر: سطور-القاهرة.
- التاريخ: ط 2، 1999.

في 1996، صدر كتاب صامويل هنتفتون "صدام الحضارات"، وآثار ضجةً عالميةً لم تتوقف حتى الآن. وفيما يلي الرد على ما ورد فيه من طروحات.

في البداية لابد من التأكيد على أن تبدّل هوية الدولة، من قومية العرق أو اللغة أو الحدود الجغرافية، إلى قومية الثقافة أو المبدأ أو الحضارة، وهو مفهوم سبق وأن اعتمدته بشكلٍ أو بآخر بعض الأنظمة الحضارية، يشكّل ارتقاءً بالدولة، وتأطيراً لدخول القرن الجديد، ولنكن متيقنين من أن الدولة القومية الليبرالية لن تشكل نهاية التاريخ، كما يطرح "فوكوياما".

كذلك لابد من تسليط الضوء، على الجزء الخامس من كتاب "صدام الحضارات"، والذي ينص على "إن بقاء الغرب يتوقف على الأمريكيين بتأكيدهم على الهوية الغربية، وعلى الغربيين عندما يقبلون حضارتهم كحضارةٍ فريدةٍ وليست عامةً، ويتحدون من أجل

تجديدها، والحفاظ عليها، ضد التحديات القادمة عن المجتمعات غير الغربية. أن تجنب حرب حضارات كونية، يتوقف على قبول قادة العالم بالشخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية، وتعاونهم للحفاظ عليها" (ص 38).

إن مثل هذا التعميم جد خطيرٍ، لأنه يطرح كمسلماتٍ فرضياتٍ خاطئةً. أولاً: إن الهوية الأمريكية أو الغربية، أخذت تصبح موضع تساؤلٍ، سواء من قبل أصحاب وجهات النظر الانفصالية، أو أصحاب الهويات الثقافية-الحضارية، وكذلك الغرب كله. ثانياً: ليس هناك حضارةٌ عامةٌ، وكل حضارة هي في ذاتها فريدة. ثالثاً: التحدي الأكبر لن يكون من المجتمعات، غير الغربية، أو بالتسمية الصريحة "الشرقية"، بل هو بذور ظلامٍ تتنامى داخل كل حضارةٍ. رابعاً: ليس هناك شخصية متعددة الحضارات للسياسة الدولية، فالسياسة

الدولية تقوم على مفهومٌ الدولة القومية-الليبرالية، وهو مفهوم لن يستمر، وفوق ذلك فهو لا يسمح بالتعددية الحضارية، إذا ما اعتبرنا أن الحضارة، لا تتلخص في زيٍ قوميٍ خاصٍ لكل أمة. إنها ساعة ترتقي فيها البشرية، وهناك من يخشى النقلة، لأنه لا يعرف، ولا يضمن نتائجها.

لكن الانتقالات التاريخية الحضارية تتم، حتى لو بقي الكثيرون يعجزون عن ضمان، أو حتى معرفة ما سوف تسفر عنه. دائماً هناك قوىً إيجابيةٌ، تقابلها قوىً سلبيةٌ، وأصحاب المصالح يبحثون عن ما يضمن استمرار مصالحهم، وهو بحث لا علاقة له بحركة التاريخ الحقيقية، والتي تتلخص في الصراع بين الإيجاب والسلب.

ومن الضروري أن ندرك أن مناخاً فكرياً معيناً، لا يعني بالضرورة نظاماً حضارياً سياسياً محارباً، إذ طالما

شـهدت البشـرية هـذه المناخـات، دون أن يكـون هنـاك تـأطيرٌ سياسـيٌ حقيقـيٌ لهـا. وإن تعـدد المناخـات، لا يفـترض الصـدام، ذلـك أن بمقـدور قـوىً كـبرى، أن تتعايش تحـت سـقف كوكـبٍ واحـدٍ، أو أن نتقاسـم منـاطق النفوذ.

إن المسـألة هـي تعـدد المحـاور، وبالتـالي تعـدد نقـاط الاسـتقطاب، داخـل كـل منظومـةٍ حضـاريةٍ. ويمكننـا بنـاءً علـى ذلـك، أن نكـون متيقـنين، مـن أن عمليـات الاسـتقطاب سـوف تشـتد وتقـوى، وتتزايـد حـدّة الصـراع، داخل المنظومة الواحـدة، وبالتـالي لابـد مـن نشـوء أشـكال للتحـاور، والتلاقـي، والتحـالف، بـين المحـاور متماثلـة الانتماء، في المنظومات الحضارية المختلفة.

إنّ الصـراع الأساسـي، لـيس بـين بنـىً فكريـةٍ قديمـةٍ عـادت إلى الحيـاة، أو إلى أخـذ دورهـا في الصـدارة، بـل إلى

الصراع الأساسي الواحد، بين قوى الحياة، وقوى الموت، داخل البنية الحضارية الواحدة.

ولابد من أن يتقوى الاستقطاب الداخلي، ضمن كل منظومة على حدة، ولابد من أن يفضى إلى التحالف، كصيغة توحد من خلالها قوى الحياة صفوفها، ضد قوى الموت المضادة.

إنّ مثل هذا الاستقطاب، ومن ثم التحالف، لممارسة الكفاح ضد العدو الواحد المشترك، والذي يقوم باستقطابه الخاص، ضمن المنظومات المختلفة، هو مسارٌ حتميٌ للقوى الحضارية، ويمكننا بكل ثقة أن تدعوه قدر البشرية.

وإذا ما تيقنا من حتمية التحالف، فسوف نختصر عقوداً من الجدل العقيم، والصراع الثانوي، الذين يشدان قوى الحياة، بعيداً عن معركتهم المصيرية

الواحـــدة. فليســـتعد رجـــال ونســـاء موســـى، وعيســـى، ومحمـد، ولابـد مـن الإشـارة هنـا، إلى أصـحاب المعتقـدات الأخرى سواء الروحية منها، أم المادية، أم الفكرية.

لقـد أصـبح المـوت طريـق خـلاصٍ، اختـار الـبعض أن ينتهجه، للتحرر مـن روابـط الحيـاة. وأخـذ العـالم يشـهد عـروض المـوت الجماعيـة، مـرةً في أوروبـا، وأخـرى في أمريكـا، وثالثـة في إفريقيـا.. هـذه السـمة لم تعـد سمـةٌ عـابرةٌ، كمـا كـان الأمـر في القـرن المنصـرم، بـل سـوف تشـكل المحـور المركـزي لهجـوم قـوى الظـلام تلـك؟ لم يعـد المـوت رمـزاً معنويـاً للشـر، بـل أصـبح معتقـداً خلاصـياً يعتنقـه الكـثيرون. وأصـبح الشـيطان يُعبَـد سـراً جهـراً، وأصبح له مواقع على "الإنترنت".

وإذا ما كـان فهـم الـدين، بعـد هـذه القـرون العديـدة عصـياً علـى الاسـتيعاب، أقـول بكـل يقـين: الـدين لـيس

ديـن نـبيٍ، ضـد ديـن نـبيٍ آخـر. الـرب واحـد، والـدين واحد، والرسل متعددون.

إنّ الحقيقـة واحـدةٌ، وعليـه يجـب أن يكـون التحـرك واحـداً، وهـذا لـن يتـأتى إلا إذا اقـترن الوجـود الموضـوعي للحقيقـة، بـالوعي الـذاتي الجمعـي لهـا. وهـذا لـن يـتم إلا إذا افتحنـا بـاب الحـوار إنـه قـدرنا فلـنترك الصـراعات الجانبيـة، ولنشـرّع أبـواب القلـوب.. ولننبـذ المجـاملات التقليدية، ولنحل مغاليق العقول.

الغزو

"هـل الإنسـان هـو المخلـوق الوحيـد في هـذا الكـون الشاسع؟"

سـؤال حيّـر العلمـاء، وقسـمهم إلى فئـتين: الأولى: تـؤمن بوجـود كائنـاتٍ حيـةٍ غـير أرضـيةٍ، والأخـرى لا تسـتبعد وجودهـا. وعلـى ضـوء ذلـك كانـت هنـاك محـاولات للاتصـال بهـذه الكائنـات، أبرزهـا مـا حملتـه سـفينتي الفضـاء الأمـريكيتين "بـايونير 10 و11" في العـامين 1972-1973، اللـتين أطلقتـا إلى مـا وراء المشـتري، وزحـل، وحملتـا بطاقـاتٍ تعريفيـةٍ للإنسـان. لم تكـن هـذه هـي المحاولـة الوحيـدة، بـل تلتهـا محـاولات أخـرى، مثـل تحميـل "فـويجر 1 و2" رسـائل صـوتيةٍ مسـجلةٍ. بعـد ذلـك بخمـس سـنوات، حـاول العلمـاء إرسـال رسـائل راديـو موجهة إلى "المجرة 13"، ولا زالت المحاولات مستمرة.

هذا ما ناحيتنـا نحـن، فمـاذا عـنهم هـم؟ إن تقـارير لا حصـر لهـا تـرد مختلـف دوائـر الشـرطة، والصـحف،

والجمعيات، والمسؤولين العالميين، تشير إلى أن الآلاف من البشر، قد تعرضوا لتجربة مشاهدة أطباقٍ طائرةٍ تزور الأرض، ويعمد أهلها إلى التحدث مع البشر، أو اختطاف بعضهم، وربما إعادتهم فيما بعد. وأوردت الصحف، على سبيل المثال لا الحصر في 31-3-1993، مشاهدة العشرات من رجال الشرطة، والجيش الإيرلندي وعدد كبير من المدنيين، لأطباق طائرة تحلق فوق المناطق الواقعة بين بريطانيا وإيرلندا.

لا زال الكثيرون غير مقتنعين بقصص مشاهدة تلك المخلوقات، إلا أنه في نفس الوقت ليس هناك من تفسيرٍ لتلك التقارير التي ترد باستمرار، مؤكدةً وجودها، وزيارتها للأرض. وفي نفس الوقت، ليس هناك ما يمنع أن يكون هناك فعلاً مخلوقاتٌ أخرى.

إنّ مجرد فكرة الأطباق الطائرة، والحوادث الغريبة التي تقع بين فترةٍ وأخرى، لا يمكن أن تكون من صنع

الخيال ، والمشاهدات التي يحيكها أصحابها لا يمكن أن تكون اختلافاً أو وهماً. وكلها تأتي متكاملةً، ومتطابقةً، لتشير إلى وجود حضارةٍ أكثر تقدماً في النواحي العلمية، بحيث تمكنت من الوصول إلينا، قبل أن نتمكن نحن من الوصول إليها.

وهذا بدوره، يعيدنا إلى سؤال هام وأساسي: "لماذا نفترض أن تلك المخلوقات صديقةٌ، ونرسل لها الرسائل التي تعرّف بالأرض، والإنسان، والحضارة؟ أليس هناك احتمال أن تكون تعتبر نفسها أمةً أخرى. لها مصلحةٌ في استعمار الأرض؟ ألا يكون سكان الأرض في مواجهة تلك الحضارات، كالهنود الحمر في مواجهة الغزو الأوروبي؟ فجأة، ودون سابق إنذار، كانت السفن التي تقل أعداداً كبيرة من المهاجرين، ترسو على سواحل أمريكا، وتنزل رجالاً مدججين بالأسلحة. أليس هناك احتمال أن يكون الوضع على هذا

الوصف، عندما نكتشف في المستقبل، أن قصص الأطباق الطائرة، وحضارات الكواكب الأخرى، لم تكن من صنع الخيال؟ وساعتها لن نلقى "الرحمة التي لقيها الهنود الحمر.

فليبحث منظرّو الحضارات عن طبيعة الصراع ما بين القوى الأرضية وأهل الكواكب الأخرى، ليصلوا إلى نتيجةٍ مفادها أنهم كيانٌ آخرٌ غريبٌ، يهدف لا إلى الصداقة، بل إلى الغزو. وليعيدوا النظر في كافة الاستراتيجيات الحضارية استعداداً للحرب الكونية المقبلة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	7
عالم الحلم	15
أنت والنجوم	29
الجاسوسة الشقراء	43
ملكوت العقل	57
صيد الرجال	67
مؤتمر بكين	77
الهوية الجنسية	87
الحقيقة	97
العقل والإيمان	105

الأساس أولاً 113
الأصولية 119
العربة والحصان 135
قدرنا 143
الغزو 153

السيرة الذاتية

المعلومات الشخصية:

الاسم : "محمد ناصر" طاهر محمد صلاح.

مكان وتاريخ الولادة : نابلس- الضفة الغربية- 1956.

الجنسية : الاردنية.

العنوان : عمان- الاردن.

المؤهل العلمي:

السنة الجامعية الرابعة- جامعة بير زيت- كلية الاداب- قسم الدراسات شرق الأوسطية وعلم الاجتماع- .1979

الخبرات العملية:

1. التامين:1981-1985.
2. التدريس (اللغة الانجليزية- دروس خاصة).
3. الكتابة والتحرير في صحيفة اللواء- سنة كاملة.
4. مسؤول ثقافي- مركز الكتاب الاكاديمي للنشر والتوزيع: 2013-2016.

المؤلفات:

كتاب ملامح العصر، ثقافي اجتماعي ديني: الطبعة الورقية الاولى 2002 مدعومة من وزارة الثقافة الاردنية- برنامج عمان عاصمة للثقافة العربية.

ترجمة الكتب:

1. وسامز- دليل مراقبة حاسوبي- منظمة الصحة العالمية.
2. الحكمة الادارية، مقالات ادارية، بيت الافكار الدولية.
3. روض الادب، قصص امريكية قصيرة، أو. هنري، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- 2002.

4. جو الحافي، رواية امريكية، و. ب. كينسيللا، الدار الاهلية، 2008.
5. حالياً اعمل في مشروع للترجمة عن الانجليزية مكون من عدة كتب.
6. لي عدد من الكتب غير المنشورة. لا افكر بنشرها، بل افكر بترجمات جديدة.

ترجمة عامة:

1. عملت مترجماً في جريدة الغد الاردنية سنة 2004.
2. ايضا ترجمت عددا كبيراً من المقالات والقصص القصيرة التي نشرت في الصحف والمجلات المحلية: جريدة الرأي، جريدة الدستور، مجلة أفكار...

الجوائز:

- جائزة الادب الامريكي- المركز الثقافي الامريكي- عمان- الاردن-1989.

العضوية:

- رابطة الكتاب الاردنيين.
- وهي عضو في الاتحاد العام للادباء والكتاب العرب، واتحاد كتاب اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية.